الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

جامعة 20 أوت 1955

Université 20 Aout 1955 Skikda

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة والأدب العربي

دروس في جماليات السرد العربي القديم

لطلبة السنة الثالثة الشعبة الأدبية

إنجاز الدكتور : عثمان رواق أستاذ محاضر (أ)

العام الدراسي :

2022/2023

وحدات المقياس:

1- السرد العربي القديم النشأة والتطور

2- خصائص السرد العربي القديم

3- أدب السير

4- قصص على لسان الحيوان

5- السرد في كتب الأخبار

6- السرد الاجتماعي

7- السرد الفلسفي

8- السرد العجائبي

9- في أدب الرحلة

10- شعرية السرد الصوفي

11- جماليات السرد في النص الشعري القديم

12- أثر السرد العربي في آداب الشعوب الإسلامية

13- أثر السرد العربي في الآداب الغربية -1-

14- أثر السرد العربي في الآداب الغربية-2-

****

****

- الدرس الأول: السرد العربي القديم النشأة والتطور.

تمهيد:

- السرد نشاط إنساني مارسهالبشر منذ الأزل،ولاشك أن آدم عليه السلام وهو يلقن الملائكة الأسماء التي علمه الله سبحانه إياها، قد مارس السرد أول مرة في حياة البشرية، في قوله سبحانه وتعالى:"وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"[1]إذ باشر آدم سرد الأسماء على مسامع الملائكة بأمر من الله سبحانه وتعالى "قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"[2]ومن تلك الوقفة بدأ الإنسان ممارسة السرد في التواصل مع غيره، وفي نقل خبراته إلى الأجيال المتلاحقة،وفي تسجيل أحداث يومه وتسجيل الحوادث الهامة في حياته،وفي التعبير عن أحلامه وتطلعاته ومخاوفه،فكانت الأشكال متعددة ومتنوعة،منها ماحفظ ومنها ما اندثر،لكن الذي بلغنا يثبت قدرة الإنسان على نقل تجاربه عبر ما مارسه من السرد عبر مختلف

[1] - القرآن الكريم.سورة البقرة. الآية .31

[2] - م.ن .الآية 33.

العصور،مثل الخرافات و الأساطير والسير والملاحم،وكتب الأخبار والتاريخ،والقصص،وكلها أشكال تعبيرية ضمنها الإنسان– سرد– أخباره وكل شؤونه وخبراته السابقة في الحياة،يتضح عراقة السرد في الحياة البشرية حتى لنستطيع أن نقول أن السرد هو فن تسجيل الحياة البشرية منذ البدايات الأولى وإلى يوم الناس هذا،وقد تخلله الخبر الصادق المنقول وتخلله الخيال الواسع في تلفيق الأحداث وزخرفتها،وهذا يفضي إلى أن السرد :

" فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية ،يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان"[3]

لقد أودع الإنسان منذ القديم سرده كل ما عاشه وكل ما رآه وعايشه وكل ما فكر فيه وحلم به، وكل ما قدسه وخافه"فأنواع السرد في العالم لا حصر لها وهي قبل كل شيء تنوع كبير في الأجناس وهي بذاتها تتوزع إلى مواد متباينة كما لو أن كل مادة صالحة لكي يضمنها الإنسان سروده،فالسرد يمكن أن تتحمله اللغة المنطوقة،شفوية كانت أو مكتوبة،والصورة..والإيماء..وهو حاضر في الأسطورة والحكاية والخرافة وعلى لسان الحيوان وفي الخرافة وفي الأقصوصة والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهاة.."[4]

[3] – سعيد يقطين،الكلام والخبر ،المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1،سنة 1997، ص 19

[4] – رولان بارط وآخرون،طرائق تحليل السرد الأدبي ،ت: حسن بحراوي وآخرون،منشورات اتحاد كتاب المغرب،ط1،سنة 1998

وفيما يتصل بالموروث السردي العربي فإننا نجد "بعض التسميات مثل السردية العربية والموروث الحكائي العربي والتراث القصصي العربي والأدب القصصي العربي والسرد العربي القديم"[5]

وكلها تحيل على ذلك الموروث السردي العربي الذي حفظ للأمة أهم مآثرها وسجل إبداعها وبين عبقرية فكرها ومخيالها الإبداعي،كما بين الخصوصية الفنية للسرد العربي القديم.

1- السرد لغة:

جاءت لفظة السرد في القرآن الكريم،في قوله سبحانه وتعالى " ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير"[6]

ومعنى الآية مرتبط بصنعة الدروع الحديدية التي برع داوود عليه السلام في صناعتها وفيها حث على إجادة الصنعة وإحكام ربط حلقات الحديد بعضها إلى بعض،في تتابع وتراص لا يدع مجالا لاختراقها من السهام وغيرها من أدوات الحرب.

فللسرد في اللغة معان متعددة لعل أبرزها الإحكام و حسن السبك،التتابع والتتالي وورود الأشياء بعضها في أثر بعض في ترابط وانسجام،حيث أن قولنا سرد الحديث

[5]- ضياء عبد الله الكعبي، تحولات السرد العربي القديم،رسالة دكتوراه،الجامعة الأردنية 2004، (مخطوط) ص 08

6-القرآن الكريم.سورة سبأ الآيتين 10-11

ونحو بسرده سردا إذا تابعه وكان مجيدا في سبكه وصياغته وتتاليه. وسرد القرآن" سردا تابع قراءته في انتظام وفي حذر منه"[7]

ومن المجازات "نجوم سرد أي متتابعة،وتسرد الدر تنظمه في تتابع ونظام،وماش مسرديتابع خطاه في مشيه"[8]

فالجامع المشترك في كل ذلك هو حسن السبك، التتابع، النظام المحكم في إيراد الأشياء وترتيبها،ترتيبا يأخذ بعضها بأعناق بعض.

وذلك يكون في الحديث ونقل الخبر أوكد وأحسن،لما فيه من جدب المتلقي وإقناعه والتأثير فيه وحثه على المتابعة والإنصات،فالحديث المتقطع والمختلطوالمتناثر ينفر المستمع ويشتت الدهن ولا فائدة ترجى من وراءه،والسارد في كل ذلك يجمل حديثه وينمقه ويسد خلله،و بحسن الربط بين جمله وتراكيبه،ومراعاة حال المتلقي في حالاته المختلفة :وذلك ماعنته العرب قديما في قولها لكل مقام مقال،وتلك مزية لا يحسنها إلا من تمرس في فن السرد وأجادته،ويبقى السارد هو القناة الناقلة للحديث والقصة والحكاية والمتصرف في حيثياتها،بما يراه مناسبا،من تقديم وتأخير،واهتمام بعناصر في القصة دون غيرها،وتحكم في سيرورة الزمن،فيحدفويسرع،ويختصر،وقد يطنب ويطيل ويسهب وكذلك يفعل في رسم الشخصيات و الأماكن،ومن هنا يظهر البعد الاصطلاحي للسرد،إضافة للمعنى اللغوي

2- اصطلاحا:

[7]-ابن منظور. لسان العرب .مادة سرد. ص 165/ينظركذلك معجم مقاييس اللغة،لأبن فارس مادة سرح /سرد ،ج3 ص 157

[8]- ميساء سليمان ، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة ،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، .دمشق.2011.ص13

السرد بأقرب تعاريفه هو الحكي أي أن يورد السارد حكاية أو حديثا يتضمن حكاية،و الذي يقوم على دعامتين أساسيتين:

أولهما: أن يحتوي على قصة ما تضم أحداثا متتابعة ومتطورة ونامية

ثانيهما:تعيين طريقة حكي القصة

ذلك ما يسمى سردا لأن كل قصة لها الكثير من الطرق لتحكى بها، ولهذا السبب يعد السرد هو الأساس الأول الذي يعتمد في التمييز بين أشكال الحكي بشكل أساسي،فهو " الطريقة و الكيفية التي تروى بها القصة،عن طريق قناة الراوي و المروي له وماتخضع له من مؤثرات بعضها متعلق بالراوي و المروي له وبعضها متعلق بالقصة نفسها"[9]والسرد مصطلح نقدي حديث يهتم "بالطرق والكيفيات التي تنقل بها الحكاية من صورتها الواقعية إلى صورتها اللغوية"[10]

ولعل أيسر تعريف للسرد هو ذلك الذي يسوقه –رولان بارط– في مجال حديثه عنالسرد"إنه مثل الحياة علم متطور من التاريخ والثقافة"[11]

وبالرغم من بساطة هذا التعريف إلا أن اتساع مجال السرد و تسربه في ثنايا كل النشاطات اللغوية المكتوبة والشفوية يجعل من تحديد شكل معين للسرد من الصعوبة بمكان فهو موجود في القصة والخرافة والأسطورة والمثل والنكتة،وهو موجود في الشعر والقصة والمسرح والرواية وكل نشاط تبليغي تواصلي.

3– مفهوم السرد العربي القديم ونشأته و مجالاته :

[9]– حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء،س2003.ص45

[10]– آمنة يوسف ، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق،دار الحوار،سوريا.ط1.سنة 1997. ص 28

[11]– نقلا عن– عبد الرحيم الكردي .البنية السردية .في القصة القصيرة.مكتبة الآداب.د.ت. دط.ص 13

انطلاقا مما تقدم ذكره نجد صعوبة في تعريف السرد العربي القديم وتحديد فترة معينة لبدايته الحقيقية، خاصة وأن التراث العربي قد امتص العديد القصص والحكايات والآثار السردية المختلفة من تراث الأمم المختلفة،بما في ذلك التراث الفارسي والروماني والإغريقي،كما تضمن التراث العربي الكثير من السرود الدينية القديمة منها الوثني ومنها اليهودي و المسيحي و أخيرا الإسلامي،و هذا ما يجعل منه تراثا سرديا ممتدا عبر العصور ومتجاوزا للتحديد،ورافضا لمنطق الحصر ضمن فترة محددة أو رقعة جغرافية معروفة الحدود والأبعاد.

وهذا ماجعل سعيد يقطين يذهب إلى القول "التراث العربي هو مجموع ما خلفه العرب من منتج وغيرهم من الأجناس التي دخلت في نطاق الحضارة العربية الإسلامية باللغة العربية وحين نركز على اللغة العربية في هذا التحديد فلأنها الإطار الذي نظم كل أشكال التعبير والتفكير..فاللغة المعبر بواسطتها والمفكر من خلالها،والموظفة في التفاعل و التواصل هي التي بواسطتها نحدد عروبة هذا التراث بدون أي حمولة عرقية أو تفاضلية، مع أي جنس.

فنعتبر من ثم التراث العربي كلا متكاملا،مادام وليد ونتاج العديد من الشروط التي صاحبت مختلف التحولات التي عرفها الإنسان العربي في تاريخه،وعبر من خلاله عن مجمل رؤيته وتفاعلاته مع الشعوب الأخرى وثقافاتها"[12]

نستنتج من ذلك أن كل ما يحتويه التراث العربي القديم بكل أشكاله التعبيرية القديمة،سواء كان شفويا أو مكتوبا وسواء صدر عن العرب أو عن غيرهم لكن بلغة عربية يدخل ضمن دائرة السرد العربي القديم،وبذلك يدخل ضمن السرد

[12]- سعيد يقطين ، السرد العربي مفاهيم وتجليات،الدار ناشرون لبنان و منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط1،سنة 2012،ص 26

العربي القديم أساطير العرب وخرافاتهم،مثل أسطورة أساف ونائلة وأسطورة العنقاء وكل ما يتعلق من خرافاتهم حول الغول والسعلاة،كما يضم هذا السرد أخبار العرب وأيامهم منذ زمن غابر،وحروبهم وأيامهم المشهورة كيوم الفجار ويوم ذي قار ويوم البسوس وداحس والغبراء،كما يشمل السير المشهورة لأبطالهم مثل سيرة عنترة،وسيرة المهلهل وسيرة سيف ابن ذي يزن،بالإضافة إلى كل ما أبدعته قرائح أبناء الحضارة العربية الإسلامية طوال العصور القديمة والتي تنتهي مع بداية العصر الحديث والنهضة العربية الحديثة مع حملة نابليون على مصر (1801/1798) والتي أخرجت العرب حسب زعم المؤرخين من دائرة القدم والتقليد إلى دائرة العصر الحديث في كل المجالات، وخاصة المجال الفكري والأدبي" فقد كان لهذه الحملة تأثير واضح على بناء المجتمع العربي واتجاهاته الفكرية"[13]وهنا يمكن الإشارة إلى انتقال السرد العربي من الأنواع التقليدية،كالمقامة و الرسائل وكتب الأخبار،إلى الأجناس السردية الحديثة كالقصة والمسرحية والرواية،بعد مخاض عسير.

4- عصور ازدهار السرد العربي القديم:

مر السرد العربي القديم في مسيرته التاريخية عبر مراحل مختلفة،عرف تنوعا وازدهارا وتطورا، حسب التحولات التي عرفتها الحضارة العربيةالإسلامية فيما بعد،فمن البعد العربي القح الذي ارتبط بتراث العرب في حدود جزيرة العرب،إلى الانفتاح على تراث الأمم التي أسلمت ودخلت تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية الشاملة،على اعتبار أن" -أدب الحضارة العربية الإسلامية-يشمل أدب أدباء غير

[13]- أحمد إبراهيم خليل،تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1916/1516،الموصل العراق،د/ط،سنة 1985،ص 132

عرب يكتبون وينظمون باللغة العربية"[14]وبذلك يمكن الحديث عن مراحل مختلفة عرفها السرد العربي القديم، و هي مراحل تشكلت فيها موضوعات وأنواع مختلفة من السرد،عكست كل مرحلة طبيعة العصر وأهم القضايا التي شغلت بال السارد العربي القديم.

أ– المرحلة الأولى:(مرحلة التهميش)

يمكن أن نعتبر هذه المرحلة مرحلة تهميش السرد مقارنة بالاهتمام المبالغ فيه بالشعر وروايته تلك هي مرحلة العصر الجاهلين،لقد عرف الجاهليون أشكالا سردية مختلفة ومتنوعة،وخاصة السير والخرافات والأساطير،وحكايات أيامهم وأخبار أنسابهم وطقوس عباداتهم لآلهتهم المتعددة وتجدر الإشارة إلى أن الطابع الغالب على هذا التراث الواسع في هذه المرحلة هو طابع المشافهة التي صعبت من عملية حفظ الكثير من هذا الموروث كما جعلت منه تراثا غير مستقر على شكل معين ولا في ثيمات ثابتة وذلك لاختلاف الرواة وتنوعهم،لكن ذلك كان في المرتبة الثانية من دائرة اهتمامهم حتى أنهم آثروا تسجيل الكثير من قصصهم شعرا" وقد يكون اللجوء الدائم للشعر– في هذا السياق– محاولة لمواكبة الذوق السائد الذي كان يرى للشعر دورا بارزا يفوق مكانة السرد ودوره"[15]ولعل هذا مادفع الجاحظ إلى القول – نقلا عن الرقاشي–"إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد المنثور فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع

[14]–المحرر، مجلة الأدب الإسلامي،تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي،العربية السعودية، ع81،آدار مارس 2014،ص1

[15]– أماني سليمان داوود ،الأمثال العربية القديمة،دراسة أسلوبية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الأردن،ط1،سنة 2009،ص 259

من الموزون عشره"[16]،وقد كان التراث السردي في هذه المرحلة تراثا عربيا صرفا،لعدم امتزاجه بثقافات الشعوب الأخرى.

ب– المرحلة الثانية:(مرحلة السرد بلبوس ديني)

كانت بداية الاهتمام بالسرد وإخراجه من دائرة الهامشية إلى دائرة الاهتمام الرسمي مع ظهور الدين الإسلامي ففي هذه المرحلة سيحظى السرد بالاهتمام اللائق وسيوظف توظيفا كثيفا خدمة لرسالة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة،وهذا ما جعل السرد في هذه المرحلة سردا دينيا خالصا،وكان الدافع إليه:لقد كان في الكثير من قصص و سرود العرب القدماء مجالا واسعا لشرح وتفسير الكثير من القصص القرآني،وخاصة تلك القصص التي جاءت مجملة دون شرح،كما احتاج كتاب السيرة إلى إعادة قراءة كل الأخبار المرافقة لحياة الرسول (ص) قبل البعثة وبعدها،لتوثيق حياة الرسول وصحابته الكرام ومراحل حياته المختلفة.

1– تفسير القرآن الكريم: وخاصة فيما يتعلق بالقصص القرآني الذي جاء مجملا أحيانا ويحتاج إلى شرح وتفسير وتوضيح،وهذا يصدق على الحديث النبوي الشريف كذلك"أما الأدب الإلحادي الذي يوجد في الجاهلية الثانية أو قبيل الإسلام والذي ذكره القرآن الكريم ونظمه الشعراء القدماء في قصائدهم ودونه الكتاب كالذي يوجد في سيرة بن هشام وأخبار عبيد بن شرية و الإكليل وحياة الحيوان للدميري..فقد ساعد في معرفة عقلية الجاهلية إلى حد بعيد"[17]

[16]– الجاحظ ، البيان والتبيين،ج1،تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع،ط7،سنة1998 ، ص 287

[17]– محمد عبد المعين خان، الأساطير العربية قبل الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،د/ط،سنة 1937،ص 04

2- كتابة السيرة النبوية :إذ عرفت كتابة سيرة المصطفى علية الصلاة والسلام توسعا كبيرا في إيراد الأخبار والقصص القديمة التي امتزج فيها الواقعي مع الخيالي،والتاريخي بالديني،والتراث العربي الممتزج بالتراث المسيحي واليهودي،وهذا يتجلى في البحث في شجرة النسب الزكي،والبحث في قصص الأنبياء القدماء،والبحث في الفترات التاريخية الخاصة بالأمم السابقة في عهد رسلهم وأنبيائهم،كل ذلك يرد في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم،وقد ذكر الباحث في شؤون السيرة النبوية تقي الدين الندوي أن مصادر كتابة السيرة متعددة ولعل من أبرزها كتب أخبار البلدان والممالك "فمن مصادر السيرة الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة والمدينة وذكروا ما في هذين البلدين الطيبين من بقاع وأودية وجبال وخطط،وذكروا من تولى من أمرائها بادئين بكل ماله علاقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأقدم كتاب في ذلك؛كتاب محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجري وكان كتابه حول المدينة وذكر اسمه صاحب كتاب (كشف الظنون) أخبار المدينة "[18]

وسيرا على هذا النمط جاءت سير الصحابة وسير القادة والفاتحين والعلماء والصالحين،و الأئمة والأمراء والسلاطين،مثل كتاب أسد الغابة قي معرفة أخبار الصحابة لابن الأثير،وكتاب مروج الذهب للمسعودي الذي جمع فيه تاريخ الدولة الإسلامية منذ نشأتها وأبرز أعلامها من لدن النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى العصر الذي عاش فيه المؤلف وقد عرج في كتابه على معارف شتى وأخبار كثيرة هي من صميم المرويات السردية العربية القديمة.

18- تقي الدين الندوي،دراسة لكتب السيرة ومصادرها،أعمال المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية،الجزء الثالث ،منشورات المكتبة العصرية بيروت لبنان ،ط1،س 1981، ص 401[18]

3–قصص الوعظ والإرشاد: فقد انتشرت ظاهرة القصاص في عهد الخلفاء الراشدين وكانت في قصصهم عظات و توجيهات للمجتمع الإسلامي الجديد،وكانت قصصهم تنهل من تراث العرب القدماء ومن قصص اليهود والنصارى ومن أبرزهم تميم الداري،وكان أول من قص هو عبيد بن عمير في عهد الخليفة الثاني رضي الله عنه،حسب بن شيبة.

4– حركة تدوين اللغة والعلوم:فقد كان من جملة ما دونه المدونون قصص العرب وأساطيرهم وأيامهم،وأنسابهم وتاريخ ملوكهم وكل ماله علاقة بتاريخ اللغة العربية شعرا ونثرا،على أن ينقل ذلك عن ثقات القوم والعرب الخلص الذين لم يختلطوا بالعجم ولا ساكنوهم ولاتأثروا برطانتهم.

5– المذاهب الفكرية والسياسية والفقهية:وكانت كلها تحاول إقامة الحجة عبر استخدام المرويات التراثية التي تؤيد مزاعمهم،خاصة بعد حدوث الفتنة الكبرى (مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه) وانقسام المجتمع العربي المسلم إلى تيارات سياسية متنازعة مثل الشيعة والخوارج وأهل السنة والجماعة،وكان الشيعة أكثر هذه المذاهب تقولا ووضعا للمرويات الباطلة تأييدا لمزاعمهم" مثل حادثة الكساء وقصة يوم الغدير وحادثة فتح خيبر،مع سوء التأويل والطعن في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم و لعنهم وسبهم وترويج الكذب حولهم"[19].ومن هنا جاء تأسيسهم كذلك لمجموعة من المعتقدات الفاسدة، التي لا يقوم عليها دليل ولاحجة و منها"نشر الأفكار اليهودية كالرجعة وعدم الموت وملك الأرض،والقدرة على الأشياء التي لا يقدر عليها واحد من الخلق والعلم بما لا

19– احسان إلهي ظهير، الشيعة والسنة، إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان،ط1. سنة 1986.ص 24/23/ وما بعده

يعلم"[20] والميزة الأساسية التي يمكن أن نسجلها على هذه المرحلة الهامة من مراحل تطور السرد العربي القديم هي تلك النزعة الدينية التي اكتسبها النص السردي العربي وسواء عبر عن مذهب فكري،أو تيار سياسي،أو مذهب ديني فإنه لم يتخل مطلقا عن لبوسه الديني،"وكان العرب أرادوا أن يتجاوزوا مرحلة الجاهلية التي لم تكن عندهم إلا مرحلة ماقبل التاريخ في حياتهم الثقافية والحضارية كما يرى حبيب مونسي"[21]

ج– المرحلة الثالثة:

وتعد مرحلة الإبداع السردي الفني وهي المرحلة التي تحول فيها المؤلفون إلى تأليف الكتب الإبداعية التي تعبر عن آرائهم الخاصة وفلسفاتهم المختلفة،ويمكن أن نعتبر العصر العباسي هو البداية الحقيقية لهذا العصر الذي عرف كتابا كبارا تركوا لنا إرثا سرديا عربيا في كل المجالات،فكان منه السرد الاجتماعي(المقامات و كتب الجاحظ مثل كتاب البخلاء) والفلسفي(مثل حي بن يقضان لابن الطفيل) والتاريخي(مروج الذهب للمسعودي) والعجائبي(مثل كليلة ودمنة،وألف ليلة وليلة)،ولعل في كتب الجاحظ والمعري وابن طفيل وابن شهيد و الحريري و الهمداني خير دليل على ذلك.إنها مرحلة ازدهار السرد وتنوعه،"حيث شهدت هذه الفترة تحولا عظيما في الساحة الأدبية فقد مس التطور والتغير والتمرد جميع فنون الأدب بما فيها النثر القصصي الذي عرف نقلة نوعية في هذا العصر بل معظم فنون النثر القصصي،شهد ميلادها في هذه الفترة وذلك بسبب الانفتاح

[20]– م.ن.ص. 27.

[21]– حبيب مونسي،نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي دراسة في المناهج ، دار الأديب وهران الجزائر، ط1،سنة 2007،ص 18

العظيم على الآخر،خاصة الفرس التي تمازجت ثقافتها بالثقافة العربية الإسلامية التي أثرت على جميع النواحي بما فيها السياسة منذ تولي دولة بني العباس صدارة الحكم ."[22]وبناء على ما سبق نستطيع القول إن العصر العباسي هو عصر نضج السرد العربي القديم،وهو عصر استحداث أشكال تعبيرية جديدة لم تكن معهودة في تراث العرب الأولين،ولعل ذلك يعود إلى جملة من العوامل منها :

1- حركة التدوين وانتقال الثقافة من المشافهة إلى الكتابة وسهولة المدارسة والحفظ،وتشجيع الخلفاء والأمراء للعلماء على التأليف في مختلف الفنون حتى بلغ الأمر أن من يؤلف كتابا يعطى وزنه دهبا،وكثيرا من الكتب الإبداعية في العصر العباسي كانت استجابة لطلب من خليفة أو وزير أو صاحب مكانة في الدولة وفي مقدمة كتاب الجاحظ الموسوم بالبخلاء ومقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة خير دليل على ذلك،وحتى الحريري لمح إلى أنه كتب مقاماته طاعة لمن "إشارته حكم وطاعته غنم"[23]

2- اتساع الرقعة الإسلامية العربية و احتكاك العرب بالأجناس الأخرى مما أنتج حركة تأثر بآداب هذه الشعوب خاصة الهنود والفرس.

3-نشأة المدينة العربية الإسلامية التي امتزجت فيها الطبقات والأجناس وتضاربت المصالح فكان السرد هو الوسيلة التعبيرية القادرة على رصد هذا التحول في حياة العربي،ومن هذه المدن التي داع صيتها مدينة بغداد،ومدينة

22-كنوي نظيرة، النثر القصصي في التراث العربي القديم،مقاربة في جمالية التلقي،رسالة دكتوراه،جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم ،2018/2017،(مخطوط)،ص 70

[23]- الحريري، مقامات الحريري، شرح وتقديم:عيسى سابا،دار صادر. لبنان ،ط1، سنة 2006،ص05

البصرة والكوفة والقاهرة،والقيروان وتيهرت،ومدن الأندلس التي كانت شاهدة على ميلاد ابن شهيد وبن الطفيل وغيرهما.

4- انتشار العلم والعلماء والمذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية ،مع ظهور بعض الحركات العنصرية مثل الشعوبية التي كانت مدعاة لكتابات الكثير من علماء العرب ردا عليها مثل الجاحظ،كما أن مكانة المثقف في هذا العصر والتهميش الذي بات يعاني منه دفعة لكتابة السرد لتوصيف الحالة مثل مقامات بديع الزمان والحريري.

5- انتشار مجالس السمر والمنادمة والتي كانت تشهد المناظرات والحكايات والقصص والتي يتم تدوينها لتشكل مادة سردية تمثل روح العصر مثل كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي،وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيرهما.

6- انتشار المدونات الأدبية والنقدية والتي حفظت الكثير من الأخبار والنكث الأدبية و القصص التي شكلت تراثا سرديا معتبرا مثل كتاب الأمالي لأبي علي القالي،وكتاب الكامل للمبرد،والبيان والتبيين للجاحظ،وكتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة وكتاب المقدمة لابن خلدون..

****

****

الدرس الثاني: خصائص السرد العربي القديم

– عرف السرد العربي القديم جملة من الخصائص اشترك في بعضها مع السرود الأخرى غير العربية،واختص بمميزات أخرى لا يشاركه فيها غيره من السرود،رغم أن بعض النقاد يذهبون إلى صعوبة الحديث عن سرد عربي خالص،فما بالك بخصائص تميزه عن غيره من السرود "وإذا قلنا السرد العربي القديم فنحن نتقاطع مع الكثير من المسميات لهذا النمط الخطابي،من ذلك التراث السردي،الأدب القصصي،أدب القصة،النثر الفني القصة عند العرب"([24])وهذا يدل بالضرورة على أن لكل نمط من هذه الأنماط السردية خصائص تميزه وإن كان سعيد يقطين يحبذ مصطلح السرد كآلية جامعة لكل هذه الأنماط " إن اختيارنا مفهوم السرد دون غيره من المصطلحات ليكون المفهوم الجامع لمختلف الممارسات التي تنهض على أساس وجود مادة حكائية"[25]نورد هذا الجدل آخذين بعين الاعتبار،أن السرد العربي القديم وإن كان في مراحله المتقدمة كان عربيا خالصا بحكم عزلة العربي واعتزازه بلغته وحفاظه على نقائها وجهله للترجمة عن الآخرين فإن الأمر يختلف في

[24]– فائزة لولو، خصائص السرد العربي القديم،حوليات جامعة قالمة للغات والآداب ،جامعة قالمة ،العدد 19، جوان 2017،ص 332

[25]– سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات،رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ،ط1نسنة 2006،ص 87

عصور ما بعد ظهور الإسلام، وانتشار العرب في أقطار العالم،و اختلاطهم ببقية الأجناس وترجمتهم لآدابهم وعلومهم وإلحاقها بلغتهم وحضارتهم،مما جعل السرد العربي يأخذ من خصائص السرود المترجمة ويعربها،كسرود الفرس والروم والهند واليونان،لكن "في إطار مهمة الإسلام الرئيسية –التي تتمثل– في إحداث واقع معين تفرضه قواعد معينة تتمخض فعاليته التطبيقية بالإيحاء الدائم للحركة المنشئة للتصور الصحيح المستند إلى القيم والموازين التي أرادها الله سبحانه أن تكون للبشرية"([26])وإن كان هذا في الأغلب الأعم وليس مطلقا،فقد قامت الحضارة العربية الإسلامية على حرية التفكير وحرية التعبير،مما أثرى التراث السردي العربي بالكثير من الأنواع السردية التي خاضت في كل المجالات وفي كل القضايا.

1– خاصية الإسناد :

هي خاصية تراثية متواترة، ومميزة يكاد ينفرد بها النص السردي العربي القديم دون غيره، وعادة

ما تتجسد هذه الخاصية من خلال إسناد لنص إلى راوي عبر لفظة " حدثنا، وروى لنا، وبلغنا " وقد يرد اسم هذا الراوي في المتن خاصة في مجال الأخبار وكتب الأخبار، وكتب السير، وفن المقامات..، وتبدو هذه الخاصية منحدرة من منبعين أساسيين

– المنبع الأول تراثي عربي: يعود إلى الطابع الشفهي للثقافة العربية القديمة التي تعتمد على النقل بالسماع من راو إلى آخر " يذهب مونرو إلى أن اختلاف

[26]– محمد الحسيني عبد الرحمن السحرتي،مجلة الأدب الإسلامي،العدد 81، ص108

روايات القصيدة العربية الواحدة في الشعر الجاهلي يدل على الطبيعة الشفوية للثقافة في ذلك العصر"([27])

– المنبع الثاني : ديني يعود إلى حرص المشتغلين بالنص الديني والسيري، التاريخي، على إثبات الرواية الصحيحة من خلال تقصي الحقيقة في النقل عبر سلسلة الرواة الثقات، وهو ما يعرف عند أهل الحديث بالعنعنة، وتلك ميزة احتفظ بها النص السردي العربي القديم، للضرورة التوثيقية أولا ثم تحول الأمر إلى ضرورة فنية،"ومعنى العنعنة أن يرد من قول الراوي (عن فلان عن فلان)سواء تكرر ذلك منه أو ورد مرة واحدة، وهي ربما تعني أن الراوي قد نقل الكلام من خلال سماعة المباشر من الراوي الأول، المعنعن عنه..ونقل الرواية تكون أعلى من حيث الدقة مثل: حدثنا وسمعت وأخبرني، من الألفاظ الدالة على السماع المباشر"([28])

وقد احتفلت كتب السرد العربي بتقنية الإسناد حتى صار من جمالياته التي تميزه عن غيره، وكثيرا ما تأتي في صيغة، روى فلان عن فلان ، أو حدثنا فلان عن فلان، أو زعموا ، أو بلغني ، أو حدث فلان قال ..،مثل " قال بن اسحاق حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري :أن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري ثم السلمي حدثه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إن افتتحتم مصر فاصتوصوا بأهلها خيرا"[29]

وقد امتد اعتماد تقنية الإسناد في السرد العربي القديم، إلى غاية بداية العصر الحديث، حيث صار إسناد الحديث جمالية فنية بعد أن كان ضرورة توثيقية، خاصة

[27]– سلطان الزغول، الرواية الشفوية للشعر الجاهلي، موقع : airai.com.le12/09/2011، تاريخ الدخول: 2021/03/12

[28]– آسيا قضاة، معنى العنعنة في الحديث، موقع: sotor.com ، 2020/08/19، تاريخ الدخول: 2021/03/12

[29]– أبو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ،ج1، ط1، الطبعة الخيرية مصر، 1329هـ،ص 8

في مجال الكتب الإبداعية مثل المقامات وكتاب ألف ليلة وليلة، والقصص المتخيلة مثل حي بن يقضان والتوابع والزوابع، ورسالة الغفران، وطوق الحمامة في الألفة والألاف، مثل مانجد في رسالة الغفران للمعري " حكى القرطبلي وابن أبي زهر في كتاب اجتمعا على تصنيفهوأهل بغداد وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف في معناه مثله يحكيان فيه أن المتنبي أخرج ببغداد.."[30]

أو كما جاء في كتاب المقامات "حدث الحارث بن همام قال: لما اقتعدت غارب الاغتراب وأنأتني المتربة عن الأتراب، طوحت بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن، فدخلتها خاوي الوفاض، بادي الأنقاض، لا أملك بلغة، ولا أجد في جرابي مضغة.."[31]

2- الموسوعية والتداخل:

من أهم ميزات السرد العربي القديم:

- أنه سرد موسوعي، يجمع فيه صاحبه فنونا شتى ومواضيع مختلفة ومتنوعة، ففي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، نجد قصص العرب وأيامهم ونجد أنساب القبائل ومساكنهم وزعمائهم، كما نجد تاريخ البلدان والأمصار وملوكها وحروبها.

إن هذه النزعة الموسوعية التي تميز كتب السرد العربي القديم، تعود بالأساس إلى

- التكوين الموسوعي لأصحابها، حيث يخوض صاحب الكتاب في التاريخ ومنه يمر إلى الجغرافيا، ومنها إلى علم الفلك والملاحة، ثم يعرج على ثقافات الشعوب وأساطيرهم وخرافاتهم ومعتقداتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ولنا في كتاب مروج

[30]- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق بنت الشاطئ، دار المعارف ، ط9، دت،ص39

[31]- الحريري، مقامات الحريري، دار الباز للنشر والتوزيع،مكة، ودار بيروت للطباعة والنشر،سنة 1978/1398، ص15

الذهب للمسعودي خير دليل، وفي كتب الجاحظ شيء من ذلك، كما تعود هذه النزعة إلى

–غياب ثقافة النوع أو الجنس عند كتاب السرد العربي القديم، فلم يعرف التراث العربي القديم فروقا واضحة بين فنون الكتابة، ولا عرفوا حدودا بين الأجناس التعبيرية النثرية كما هو حادث في عصرنا،لذلك جمعوا بين الخبر التاريخي، وبين الآية القرآنية وتفسيرها وبين الحديث النبوي الشريف وشرحه، إلى جانب القصة الخرافية، والأسطورة وغرائب البلدان، وعجائب البحار والصحاري وغيرها.

3– التناسل والاتساع:

نجد هذه الخاصية في موروثنا السردي العربي القديم متواترة ومتكررة، وتتمثل في اشتمال النص على القصة أو الموضوع الإطار، والذي تتفرع منه الكثير من النصوص والموضوعات الأخرى التي تكون أحيانا بعيدة عن القصة الإطار، ومن يتصفح كتاب ألف ليلة وليلة يقف على هذه الخاصية متجلية بدقة، وكذلك كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.

يقول ممدوح فراح" عرفت الكتابة السردية العربية ظاهرة التناسل السردي منذ زمن بعيد، ربما تعود جدورها إلى كتاب ألف ليلة وليلة حيث تعتمد بنية الحكايات وتوالدها أو تراكمها، وهو ما أعطى الليالي طابع التشويق والإثارة، وقد فطن الكثير من الكتاب إلى تقنية الليالي واستخدموها في كتاباتهم"[32].

لقد جاء كتاب ألف ليلة وليلة وفق هيكلة خاصة تناسلت فيها النصوص من بعضها البعض بداية بحكاية " ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين..

[32]– ممدوح فراح النابي، التناسل السردي الكتابة على الكتابة،مجلة الجديد، موقع:magazine.com، يوم 2018/12/1، تاريخ الدخول : 2021/06/28.

لتتفرع عنها حكاية الجني المخدوع ثم حكاية التاجر وهكذا"[33]والحقيقة أن هذه الظاهرة عرفت حتى في كتب السير وكتب الأخبار وكتب البلاغة وتاريخ الأدب العربي القديم، وكتب التاريخ، وكتب التفسير وشرح الحديث وغيرها، ففي كتاب الأمالي لأبي علي القالي نجد هذه الظاهرة متغلغلة في هيكلية التأليف عند الكاتب،فنراه ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن فن إلى فن ومن الشعر إلى النثر، ومن قصة إلى أخرى كل ذلك في موضوع إطار هو جمع درر الأدب العربي القديم وتدوين ما جادت به قرائح العرب القدماء من منظومهم ومنثورهم، ومن حكمهم وأمثالهم وقصصهم.ماتيسر لأبي علي حفظه وروايته وإملائه على طلبة العلم بقرطبة.

5- الغرائبية والتعجيب:

تتسم أغلب السرود العربية القديمة بالغرائبية والتعجيب، خاصة تلك التي تدور حول العوالم الغيبية والعوالم الساحرة، ولا عجب أن تكون هذه الميزة تأخذ مكانها في أبرز المؤلفات السردية العربية، سواء في المؤلفات التاريخية أو السير ذاتية، أو سير الأبطال والشعوب،فقد حوت المؤلفات السردية العربية القديمة الكثير من الأحداث الغريبة، والأماكن الغريبة والشخصيات العجيبة،حيث يجنح الخيال العربي إلى استحداثها، بناء على تزاوج بين بعض التصورات التراثية وبعض التصورات الدينية، التي يغلب عليها التجسد والتمثيل للكثير من هذه الأمور مجتمعة، ونجد التعجيب والتغريب في كتب السير، وكتب الرحلات المختلفة وكتاب ألف ليلة وليلة وكتب المتصوفين..."إن نصوص التاريخ وأدب الرحلة وكرامات

[33]- ألف ليلة وليلة،دار المنارة، دار الصباح، ط1، سنة 2010، ص5 /8/7/6

الصوفية كانت غنية بالعجائبي والأفعال الخارقة، إنها مؤلفات تدعي نقل الحقيقة، رغم وقوعها في المبالغات والنقل عن العامة دون تثبت..فالمسعودي في كتاب مروج الذهب مجرد ناقل للمادة السرديةمن مصادر عدة..الموروث الشعبي،فكان هناكخلط واضح بين ماجاء في الشريعة وما نقله من الكتب والعامة من الناس."[34]قد لا تكون هذه هي كل مميزات التي ميزت السرد العربي القديم وشكلت جمالياه لكنها من المؤكد أنها أهم المميزات التي جعلت من تراثنا السردي العربي القديم يتمتع بشيء من التفرد والخصوصية مازالت تثير دهشة الباحثين إلى يومنا هذا. ذلك انه تراث عربي إسلامي ترعرع في بيئة ثقافية انفتحت على أشكال متنوعة تفصح عن تجدر الحكي والخبر في الأدب العربي،ابتدأ الأمر بالمغازي التي تمثل أولى أشكال الإبداع الشعبي منذ بداية عهد الثقافة الإسلامية ..وهي "نصوص يتقاطع فيها المرئي من المشاهد مع المسموع والمختلق والخيالي لقد أضفى القصاص على قصصهم نغمة من خيالهم وفنهم وأسلوبهم الأخاذ في السرد القصصي..واستمدوا مادتها من الأساطير والخرافات ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة عن العرب ومن جاورهم ."[35]

[34]- فوزية قفصي حسين،العجائبي مفهومه وتجليه في الموروث السردي العربي، مجلة، تسليم، العددان السابع عشر والثامن عشر، شوال 1442هـ حزيران 2021، ص 461.

[35]- محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار النفائس . بيروت. لبنان، ط1 ، سنة 2009، ص 141

الدرس الثالث : أدب السير في السرد العربي القديم

عرف السرد العربي القديم فن كتابة السيرة، وقد تنوعت السيرة في تراثنا السردي بين السيرة الشعبية مثل سيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة ذات الهمة، وسيرة الزير سالم، وسيرة عنترة،وسير القادة والعظماء والأنبياء مثل سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء من بعده وسيرة القادة والفاتحين مثل سيرة الظاهر ببرصوصلاح الدين الأيوبي،وسير العلماء والأولياء والصالحين مثل سير أصحاب المذاهب الفقهية كالإمام مالك وأحمد بن حنبل والشافعي وأبي حنيفة النعمان، وكلها سير خلدت هؤلاء وذكرت مناقبهم ورصدت تأثيرهم في من حولهم، وفي العصر الذي عاشوا فيه.

1- تعريف السيرة:

لغة : الطريقة والسبيل والمسلك، والنهج والسنة المتبعة جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس "سير السين والياء والراء أصل،يدل على المضي والجريان يقال سار يسير سيرا وذلك يكون ليلا ونهاراو "السيرة الطريقة في الشيء والسنة –

فيه– لأنها تسير وتجري، يقال سارت وسرتها أناقال الشاعر:فلا تجزعن من سنة أنت سرتها *** فأول راض سنة من يسيرها[36]

اصطلاحا: هي فن أدبي يجمع بين الأدب القصصي والتاريخ وعادة ما يتناول شخصية من الشخصيات البارزة لتجلية جوانب حياتها، وعناصر العظمة فيها، حيث تحلل الشخصية المترجم لها لتقدم صورة حية عن حياتها وتجربتها، وتأثيرها وتأثرها بمن حولها وفيهم، فهي صورة شفافة للتجربة الإنسانية على اختلاف زمانها ومكانها وهي مصدر غني من مصادر المعرفة والمتعة الأدبية، خاصة في " الإطلاع على دخائل النفس البشرية و أسرارها، وصراعاتها في الحياة والمجتمع، في إطار متماسك يضمن استمرار المشاركة الإنسانية التي يرجوها المؤلف و القارئ"[37]

2– أنواع السيرة وخصائصها :

يقسم الباحثون السيرة إلى تقسيمات متعددة ومتنوعة، منها ما يرتكز على علاقة الكاتب بما يكتب، فجاءت التقسيمات مبينة تلك العلاقة

أولا :السيرة الذاتية :

وهي كل كتابة يتناول فيها صاحبها حياته الخاصة بالكتابة والتدوين،سواء كانت كتابة مفصلة عن مراحل حياته كلها أو مقطعا منها، مثل ما نجد في تراثنا من كتابات تناول فيها بعض العلماء ذواتهم بالتعريف مركزين على مسار حياتهم العلمية كالذي نجده في تراث بن خلدون من تعريف بذاته وبمغامراته ورحلاته وهو عمل موسوم ب" التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا،كما نجد كتاب طوق

[36]- أبو الحسن أحمد بن فارس، مقاييس اللغة ت :عبد السلام هارون ج03، حرف السين، دار الفكر للطباعة والنشر،ص120

[37]– تطور فن السيرة عبر العصور، منتديات ستار تايمز،startimes.com. نشر: 2011/02/10 تاريخ الدخول: 2023/01/15

الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي وهو من أمتع كتب السيرة الذاتية في أدبنا العربي القديم لجمعه بين السيرة وبين الكتابة الأدبية شعرا ونثرا،ومنها المنقذ من الضلال للإمام أبو حامد الغزالي ت 505هـ/1111م"[38]

ثانيا : السيرة الغيرية: هي كل سيرة يكتبها كاتب ما ليعرف بغيره من الأشخاص، سواء كانت سيرة عظيم من العظماء أو سيرة أحد من العامة وإن أعظم كتب في هذا السياق سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والتي يمكن أن نعدها النموذج المثل للسيرة وخصائصها في السرد العربي القديم .أما من ناحية أسلوب الكتابة ومصادرها فهي كذلك تقسم إلى:

– سيرة موضوعية وسيرة خيالية، ولعل المقصود بذلك أنه كلما تقصت السيرة وكاتبها الحقيقة كلما كانت أقرب إلى الموضوعية، وكلما مالت إلى التنميق والمبالغة والتفنن في فن القول كلما كانت أقرب إلى السيرة الخيالية، وإن كانت كل السير دون استثناء فيها الكثير من الخيال حتى وإن كانت تتناول حياة حقيقية بالكتابة، فهي بالأساس تقوم على التذكر وإعادة صياغة هذه الحياة بواسطة اللغة.

3– بدايات كتابة السيرة وإرهاصاتها في تراثنا العربي القديم :

تشير الكثير من الدراسات التراثية إلى اهتمام العرب القدماء بالسير الشعبية والتغني بها وقد جمعت هذه السير بين الخرافة والتاريخ والشعر والسيرة والملحمة، وقد اشتهر منها سيرة الزير سالم أبو ليلى المهلهل أما الشعر العربي القديم والجاهلي بخاصة، فإنه يحمل في طياته بدور الكتابة السيرية، ذلك أن الشاعر الجاهلي قد ضمن شعره بشدرات من حياته الخاصة إن لم نقل إن في هذه الأشعار

-38- بحث حول أدب السيرة ، https://koudia-tlemcen.fourimarabia.com38، 2015/11/15 تاريخ الدخول : 2023/08/30

حياة عابقة بالحركة، تحيل على ماضي الشاعر وذكرياته ومغامراته، وتنقلاته من مكان إلى آخر، وتصويرا لما كان يعتمل في نفسه من أحاسيس ومشاعر، كالحزن وآلام الفقد، ومشاعر الحب والإعجاب والحنين .. ما يجعل من شعر المعلقات على سبيل المثال سيرا لأصحابها تحكي حياتهم، وذكرياتهم وتسجل بصدق ما لف تلك الحياة من عادات وتقاليد ومدى تأثير كل ذلك على حياة الشاعر ومغامراته.فحين ينادي الشاعر صاحبيه ويدعوهما للبكاء معه والوقوف على ديار محبوبته، ليجعل ذلك طريقا لاسترجاع الحياة الماضية ووصف سيرته فيها.

يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم يعرج بعدها إلى ذكر مغامراته المختلفة معبرا عن مشاعره وعن تفاعله مع كل مايحيط به في حياته السابقة،حتى كأن المتلقي يشاهد مقاطع من حياة الشاعر، ومن بيئته ومجتمعه الذي عاش معه.

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ويوم دخلت الخذر خذر عنيزة قالت لك الويلات إنك مرجلي.....

ويوم عقرت للعذارى مطيتي

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ففي كل بيت من هذه الأبيات صورة من صور الحياة السابقة التي عاشها الشاعر ومازالت تشكل ذكريات جميلة في مخيلته، وهذا يصدق على عنترة وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، والشنفرى. وغيرهم كثير.

وعلى العموم كانت هذه شدرات لسير ذاتية مبثوثة في معلقات ومطولات الشعراء الجاهليين وحتى بعض شعراء العصر الإسلامي والأموي، لكن البداية الحقيقية لكتابة السيرة بكل تجلياتها وخصائصها المتعارف عليها في تراثنا العربي القديم، جاءت مع بداية الاهتمام بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبأحاديثه وبغزواته، لقد كان الدافع الديني حافزا كبيرا لكتابة السيرة والتبحر فيها بأنواعها المختلفة."

وقد صنف الناس في هذا قديما وحديثا كتبا كثيرة مفردة وغير مفردة "[39]

4- مسيرة كتابة السيرة النبوية

تأتي كتابة السيرة النبوية- من حيث الترتيب الزمني- في الدرجة الثانية بالنسبة لكتابة السنة النبوية، فلا جرم أن كتابة السنة، أي الحديث النبوي، كانت أسبق من كتابة السيرة النبوية عموماً، إذ السُّنَّة بدأت كتابتها، كما هو معلوم، في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم، بإذن، بل بأمر منه عليه الصلاة والسلام. وذلك بعد أن اطمأن إلى أن أصحابه قد تنبهوا للفارق الكبير بين أسلوبي القرآن المعجز والحديث النبوي البليغ، فلن يقعوا في لبس بينهما.

أما كتابة حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومغازيه بصورة عامة، فقد جاء ذلك متأخراً عن البدء بكتابة السُّنَّة، وإن كان الصحابة يهتمون بنقل سيرته ومغازيه شفاها.. ولعل أول من اهتم بكتابة السيرة النبوية عموماً، هو عروة بن

[39] - الحافظ بن كثير القرشي الدمشقي، مختصر شمائل رسول الله ﷺ ، شرح : عياش بن إسماعيل صيافة ،إصدارات مسجد مالك بن نبي - سكيكدة. الجزائر 2022.

الزبير المتوفى 92 هـ ثم أبان بن عثمان المتوفى 105 هـ ثم وهب بن منبه المتوفى 110 هـ ثم شرحبيل بن سعد المتوفى 123 هـ ثم ابن شهاب الزهري المتوفى 124 هـ.

إن هؤلاء يعدون، ولا ريب، في مقدمة من اهتموا بكتابة السيرة النبوية، كما تعد كتاباتهم طليعة هذا العمل العلمي العظيم، بل تعد الخطوة الأولى –كما ألمحنا– إلى كتابة التاريخ والاهتمام به عموماً، هذا بقطع النظر عن أن الكثير من أحداث السيرة منثور في كتاب الله تعالى، وفي بطون كتب السنة التي تهتم من سيرته صلّى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله، لا سيما ما يتعلق منها بالتشريع، غير أن جميع ما كتبه هؤلاء قد باد وتلف مع الزمن، فلم يصل إلينا منه شيء، ولم يبق منه إلا بقايا متناثرة، روى بعضها الطبري، ويقال إن بعضها الآخر– وهو جزء مما كتبه وهب بن منبه– محفوظ في مدينة هايدلبرج بألمانيا.

ولكن جاء في الطبقة التي تلي هؤلاء من تلقف كل ما كتبوه، فأثبتوا جلّه في مدوناتهم التي وصل إلينا معظمها بحمد الله وتوفيقه، ولقد كان في مقدمة هذه الطبقة محمد بن إسحاق المتوفى عام 152 هـ، وقد اتفق الباحثون على أن ما كتبه محمد بن إسحاق يعدّ من أوثق ما كتب في السيرة النبوية في ذلك العهد، ولئن لم يصل إلينا كتابه (المغازي) بذاته، إلا أن أبا محمد عبد الملك المعروف بابن هشام قد جاء من بعده، فروى لنا كتابه هذا مهذباً منقحاً، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن إسحاق له أكثر من خمسين سنة، يقول ابن خلكان : »وابن هشام هذا، هو الذي جمع سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم، من المغازي والسير لابن إسحاق، وهذبها، ولخصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي

الناس والمعروفة بسيرة ابن هشام.«وعلى كل، فإن مصادر السيرة النبوية التي اعتمدها سائر الكتاب على اختلاف طبقاتهم محصورة في المصادر التالية:

أولاً– كتاب الله تعالى :فهو المعتمد الأول في معرفة الملامح العامة لحياة النبي صلّى الله عليه وسلم، وفي الاطلاع على المراحل الإجمالية لسيرته الشريفة، بقطع النظر عن أسلوب القرآن في بيان ذلك.

ثانياً– كتب السنة النبوية :"وهي تلك التي كتبها أئمة الحديث المعروفون بصدقهم وأمانتهم، كالكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيره، وإن كانت عناية هذه الكتب الأولى إنما تنصرف إلى أقوال رسول الله وأفعاله من حيث إنها مصدر تشريع، لا من حيث هي تاريخ يدوّن .ولذلك رتبت أحاديث كثير من هذه الكتب على الأبواب الفقهية، ورتب بعضها على أسماء الصحابة الذين رووا هذه الأحاديث، ولم يراع فيها التتابع الزمني للأحداث.

ثالثاً– الرواة الذين اهتموا بسيرة النبي صلّى الله عليه وسلم وحياته عموماً :وقد كان في الصحابة الكثير ممن اهتم بذلك، بل ما من صحابي كان مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مشهد من مشاهد سيرته إلا ورواه لسائر الصحابة ولمن بعده أكثر من مرة"[40]، ولكن دون أن يهتم واحد منهم في بادئ الأمر بجمع هذه السيرة وتدوينها. وأحب أن ألفت النظر هنا إلى الفرق بين عموم ما يسمى كتابةً وتقييداً، وخصوص ما يسمى تأليفاً أو تدويناً، أما الأول فقد كان موجوداً بالنسبة للسُّنَّة في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم كما ذكرنا آنفا، وأما

[40] -https://www.athabat.net/article/204655

الثاني، ويراد به الجمع والتنسيق بين دفتين، فقد ظهر فيما بعد، عندما ظهرت الحاجة إلى ذلك.

5- مميزات السيرة النبوية وجمالياتها :

تتميز السيرة النبوية العطرة بالعديد من المميزات الهامة منها :

1- تتميز بالصحة و دقة جميع ما ورد فيها من تفاصيل و معلومات و ذلك من خلال اتباع الكثير من الطرق في تحري الروايات الواردة فيها و التأكد من صحة النقل و أهم ما يميز السيرة النبوية بالصحة هو القرآن الكريم حيث ورد في القرآن الكريم جانبا كبيرا من سيرة النبي صلى الله عليه و سلم.

2-كما تتميز السيرة النبوية بالوضوح حيث أن جميع ما ورد فيها من أحداث و تفاصيل لم يحتوي على أي غموض او علامات استفهام بل كانت جميعها واضحة من قبل ولادته بل من قبل زواج أبيه بأمه كانت جميعها واضحة بالأحداث و التواريخ التي لا خلاف عليها.

3- تميزت كذلك السيرة النبوية بالواقعية حيث انه لم يتم تناول صلى الله عليه و سلم بشكل مبالغ فيه او تم إضافة له المعجزات و الخوارق التي لم تحدث كما فعل أتباع الأنبياء الآخرين و لم تكن السيرة النبوية أسطورية بل كانت عبارة عن واقع و اتصفت بالتوازن.

4- كما تتميز السيرة النبوية بالشمول حيث ذكرت العديد من الاحداث الفردية او الجماعية المتعلقة بالنبي مثل المواقف التي تربطه بالواقع مثل السياسة و الإدارة و الزواج و علاقاته بأزواجه و غيرها

6–مصادر كتابة السيرة النبوية

* اعتمد المسلمون و المتخصصون في علوم التاريخ و علوم الحديث و الرواية على العديد من المصادر في نقل السيرة النبوية و يفيد هذا التنوع في المصادر في التأكد من الروايات المنقولة من خلالة مقارنتها مع ما ورد في غيرها من المصادر للتأكد منها ، ومن أهم مصادر السيرة النبوية وأصحها على الإطلاق هو القرآن الكريم و هو الأكثر مصداقية لأنه يخلو من الخطأ و كلام الله.

* وثاني مصادر السيرة النبوية كتب الأحاديث النبوية التي عمل العلماء المتخصصون في الحديث على جمعها و ترتيبها و تصنيفها و تصحيحها و التأكد من صدق روايتها مثل كتب الحديث الستة و من أفضلها كتاب البخاري و مسلم ، أيضا تعد كتب التفاسير من أهم مصادر السيرة النبوية حيث أنها احتوت على أسباب نزول الآيات التي تتعلق بحياة النبي صلى الله عليه و سلم و ما فيها من أحداث

* كما أن كتب السير والتراجم تعد مصدرا هاما للسيرة النبوية ، كذلك كتب التاريخ التي تناولت الحقب التاريخية المختلفة ومن أهمها كتاب تاريخ الإسلام للإمام الذهبي وتاريخ الرسل والملوك للطبري.

* كانت السيرة النبوية عاملا لفت أنظار الكثيرين من غير المسلمين لما تحتويه من دلائل على عظمة النبي صلى الله عليه و سلم و على صدق رسالته ، "حيث يقول المؤرخ الإنجليزي الشهير أرنولد توينبي أن سيرة الرسول العربي قد

أخذت بعقول إتباعه و سمت لأعلى عليين حيث شكلت سيرته قوانين ليس للمسلمين وحدهم بل للشعوب الأخرى التي تواصلوا معها"[41].

الدرس الرابع : القصص على لسان الحيوان:

تمهيد :

السرد على لسان الحيوان من أعرق الأشكال التعبيرية في الآداب العالمية، فقد توسل به قدماء المصريين وقدماء اليونان والهند وبلاد فارس في القديم من العصور إلى التعبير عن الكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية، بانتحال صورة الحيوان وصوته، لتجسيد تلك القضايا التي تشغل بال المجتمعات الإنسانية وتؤرقه، ساعين بذلك إلى إقرار حكمة، أوتأكيد رؤية سياسية أو اجتماعية أو النهي عن أخلاق سيئة والدعوة للتمسك بأخلاق الفضيلة والورع في معاملة الناس والتفاعل معهم.

[41] - https://t3bir.com

ويدخل هذا الفن في نظر الكثير من النقاد والدارسين ضمن ما يعرف بالخرافة لاستحالة الأمر في واقع الحال،ولما لهذا الفن من ضروب العجيب والغريب ولما فيه من متعة فنية تجعل المتلقي شديد التأثر بما يقرأ، وهو فن قد يلجأ إليه صاحبه في حالات معينة ومختلفة.

لعل من أبرزها:

– حالة الطغيان والاستبداد

– حالة تفشي الأمراض الاجتماعية وتخلي الناس عن القيم الفاضلة وجريهم وراء متع الحياة بكل الطرق المتاحة،ولو كانت غير شريفة ولا إنسانية

– الدعوة إلى فلسفة جديدة في الحياة يخشى صاحبها من ردة فعل سلبيةعلى مايدعو إليه" فالحكي على لسان الحيوان هي وسلة العلماء والفلاسفة والمتصوفة والأدباء والشعراء، لتجنيب المتلقي ومستقبل الخطاب النفور من مما هو مكرر على أسماعه من مواعظ وعبر،فقدت بريق تأثيرها بحكم التعود وحدة الأسلوب المباشر،ولهذا فخرق المألوف في صيغة إرسال الخطاب يجعله يسترجع سلطة التأثير، خاصة إذا كان هذا الوسيط ممن لا يعقل ولا ينطق؛من أنواع حيوانات البر والبحر وأصناف الطيور والزواحف والهوام فإذا بها مصدر للحكمة والمعرفة ولسان الأخلاق و الفضائل وهذا عين العجيب الذي تنشرح له الصدور"[42]

1 –نشأة فن القصص على لسان الحيوان

[42]- أمال فرفار؛ الكتابة المتوسلة بلسان الحيوان في الثقافة العربية.. مجلة العلوم الإنسانية . قسنطينة ع. 42، ديسمبر 2014

وقد اختُلف حول نشأة هذا الفن ومهاده التاريخي، فقيل: إنّ أصوله ترجع إلى الهنود والإغريق والفراعنة ،وربما كانت النشأة عند المصريين القدماء وأخذها عنهم الإغريق عندما دخل الإسكندر الأكبر مصر ومن ثم أخذها الإغريق معهم إلى الهند عندما وصل إليها الإسكندر الأكبر غازيا ولكن لاتوجد أدلة ثابتة على ذلك.

وقيل: بل إنّ الهند أسبق الأمم في حلْبة هذا الفنّ، وثمّة من يرى غير ذلك. وعلى أي الأحوال لايعد مثل هذا اللون من القصص فنا إلا إذا اعتمد على الرمز كوسيلة فنية تعليمية ولعلّ ارتباط هذا الفن بالحكاية أو القصّ الشعبيّ، والنشأة الأسطورية له، يكمنان وراء شيوعه لدى كثير من أمم الأرض.

وقد عرف العرب الحكاية على لسان الحيوان معرفة تامّة منذ العصر الجاهلي ويتجلّى هذا الأمر واضحاً في قصص الأمثال الواردة في كتب الأمثال،(كالأمثال للمفضّل الضّبي ت170هـ)، و(جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ت نحو 395هـ)، و(مجمع الأمثال للميداني ت 518هـ).

وفي الشعر الجاهلي زادٌ وافرٌ من هذه الحكايات، ولاسيما في دواوين أمية بن أبي الصلت، والأعشى الكبير، والنابغة الذبياني. وجاء في القرآن الكريم كثير من الآيات عن الحيوان لغايات عديدة، فدارت حوله كثير من الحكايات في كتب التفاسير، التي فصّلت ما أُجمل فيه .

وفي كثرة وجودها دلالةٌ على اهتمام العرب بهذا الفن، واتّخاذهم له سبيلاً للعبرة والموعظة الأخلاقية، وكان يُروى شفاهاً حتى عصر التدوين، وبفعل الامتزاج

الاجتماعي والثقافي الواسع في العصر العباسي الأول تعرّف العرب إلى حكايات الأمم الأخرى.

فهذا (ابن المقفع ت 142 هـ) يخطو بالحكاية على لسان الحيوان خطوة واسعة، لا عهد للأدب العربي بها، فيكون أوّل من نقل هذا الفنّ القصصي من مرحلة الشفاهية الشعبية عند العرب، إلى الأدب المدوّن الكتابي في أول خطوة من نوعها في تاريخ الأدب العربي القديم عامّة، والإبداع القصصي خاصّة، وتزداد هذه الخطوة أهمية، إذا وضعنا في الاعتبار أنّ هذه هي المرّة الأولى في التراث الأدبي عند العرب، التي يُوضع فيها بعد الشعر أول كتاب قصصي مجموع في صعيد واحد."وتنبَّهَ العرب إلى قيمة هذا الأثر الخالد، الذي تنقل بين الأدبين الهندي والإيراني، قبل أن ينتقل إلى العربية، فأُرسي أساس صرحه إرساءً جديداً، ومنه أُخذت ترجمات كثيرة، تربو على الستين .

ومن صور اهتمام العرب به، وتأثيره في أدبهم، محاكاتهم إياه ونسجهم على مثاله. وممّن حاكاه ونسج على منواله،(سهل بن هارون ت 215 هـ في النمر والثعلب)، و(إخوان الصفا في رسالة تداعي الحيوانات على الإنسان) في القرن الرابع الهجري، و(ابن ظَفَر الصّقلي ت 565هـ في سُلوان المطاع في عدوان الأتباع)، و(أبو العلاء المعري ت 449هـ، في أكثر من كتاب وصل إلينا منها الصاهل والشاحج)، و(ابن الهبارية ت 504هـ، تحت عنوان نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة) وممّن عُرِفَ بنظمه (أبان بن عبد الحميد اللاحقي ت 200 هـ)، و (علي بن داود ت 230هـ)، و(بشر بن المعتمر ت 210هـ)،. وغير هؤلاء كثير. فكان تأثير كليلة ودمنة بالغ الأهمية في الأدب العربي . لأنه يمثل نموذجا من أخصب نماذج حركة الأدب المقارن ولا يزال عطاؤه متجددا منذ أن

ألفه الفيلسوف الهندي (بيدبا) استجابة لمطلب ملك الهند (دبشليم) والكتاب يشهد على أن اللجوء إلى القصص على ألسنة الحيوان كان لونا من ألوان التعبير الرمزي عن قضايا الواقع المعيشي يلجأ إليها الكاتب في محاولة للتخفي وراء الرمز لمواجهة عسف الحاكم وظلمه حيث يشهد على ظلم الملك (دبشليم) وسوء حكمه ومحاولة (بيدبا) نصحه وإرشاده بطريقة مباشرة فسجنه (دبشليم) فاضطر (بيدبا) إلى كتابة (كليلة ودمنة)وجعله لونا من ألوان التوجيه والنصح غير المباشر"[43] .

2- خصائص فن القص على لسان الحيوان

إنّ فن الكتابة على لسان الحيوانات هو من الفنون الأدبية القديمة في التاريخ، ولهذا الفن اسم شائع هو "الخرافة" لأنّ العمل قائم على حديث الحيوانات ونحو ذلك، وهذا من الأمور التي لا تحدث في الواقع إطلاقًا، وقد وضع الباحثون خصائص لتمييز هذا الفن والمحافظة على أصالته، ومن تلك الخصائص ما يأتي:

-قِصَر القصة في أغلب الأحيان نظرًا لما تحمله من عبرة وأخلاق .

- عدم اقتصارها على النثر وإنّما قد تكون في الشعر أيضًا .

- محدوديّة أحداثها واقتصارها في الغالب على حدث واحد غير قابل للتفريع .

- شخصيّاتها هي الحيوانات التي تؤدّي دور البشر وتكون البطولة لها مع الحفاظ على خصائصها الحيوانية .

- ضرورة مشابهة الحيوانات للإنسان في كثير من التصرفات لما في ذلك من إثارة ذهن المتلقي كي يعتقد أنّ الحيوان هو إنسان في الحقيقة .

43- روان مخيمر. خصائص الحكاية على لسان الحيوان. ٦يوليو ٢٠٢١. https://mawdoo3.com/ .

43

– نقل الحكاية لرسالة أخلاقية محددة تمثّل المعنى العام للقصة التي تدور حوله، وغالبًا ما يُصرِّح الكتّاب بالموعظة الأخلاقية في نهاية القصة مثل قصص كليلة ودمنة .

– مُعالجة القصة الحيوانية الخرافية لمضامين إنسانية عامة ولكن بطريقة الرمز والتلميح .الحيوية في تأويلها لأنّها قيلت لكي تكون مناسبة لجميع الأعمار

– .السهولة في السرد والحوار ما يجعل القصة سهلة التذكّر كذلك .

– القدرة على كسر الحواجز والسفر إلى مختَلف الآداب العالمية؛ لأنّها قيلت لتكون أدبًا يعرفه الجميع من دون أن يكون حكرًا على أدب بعينه، وهذا ما يفسّر وجود كثير من الخرافات العالمية في الأدب العربي ..

– أشهر كتاب الحكايات على لسان الحيوان

من أشهر الأدباء الذين كتبوا على لسان الحيوانات نثرًا وشِعرًا ما يأتي :

عبد الله بن المقفّع :

هو واحد من الكتّاب البلغاء الأعلام في تاريخ الأدب العربي، كان يُصنَّف في مستوى عبد الحميد الكاتب، أصله من بلاد فارس وكان مجوسيًّا إلى أن أسلَمَ على يد الأمير العباسي عيسى عم الخليفة أبي العباس السفّاح، كان حادّ الذكاء مع طيش فيه، اتُّهم بالزندقة ومات مقتولًا، من أشهر كتبه كليلة ودمنة الذي ترجمه وزاد عليه وهو يدور على لسان الحيوانات.

****

****

الدرس الخامس : السرد في كتب الأخبار :

تمهيد: يحفل التراث العربي القديم بأنواع مختلفة من كتب الأخبار،التي جمع فيها أصحابها من كل فن، وأوردوها كل شاردة وواردة وضمنونا كل ما وصل إليهم من أخبار عصرهم، وأخبار العصور التي سبقتهم، جاعلين من هذه الكتب الموسوعية ميدانا خصبا وفضاء يتسع للجميع مهما كان اهتمامه ومهما كان مجال بحثه، فهي تتضمن السير والتاريخ والجغرافيا، والكثير من أخبار الأدب والأدباء، بالإضافة إلى الملح الشعرية والنوادر والأمثال، إنها تمثل معينا لا ينضب من المتعة والمنفعة، ولعل أبرز هذه المؤلفات التي لاقت استحسان المتأخرين فنهلوا منها ونقلوا عنها الكثير، كتاب مروج الذهب للمسعودي، الفهرست لابن النديم، كتاب الأغاني لأبي فرج الإصبهاني، كتاب الأمالي لأبي علي القالي، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، كتاب البيان المغرب في أخبار بلاد المغرب لابن عذاري المراكشي كتاب المقدمة لابن خلدون.

1- مفهوم الخبر :

لا شك أن بناء مفهوم واضح للخبر يستوجب الانطلاق بدءاً من تحديد دلالته اللغوية. ويجد المتصفح للمعاجم العربية أن مدلوله يتراوح بين العلم بالشيء، ونقله كتابة أو مشافهة، حيث نجد أن ابن منظور يعرفه بقوله: «الخبر بالتحريك: واحد الأخبار. والخبر ما أتاك من نبأ عمن تستخبر. ابن سيده : الخبر: النبأ. والجمع أخبار»[44].

وفي المصباح: «اسم ما ينقل ويتحدث به»[45]وفي المعجم الوسيط: «الخبر ما ينقل ويتحدث به قولاً أو كتابة، قول يحتمل الصدق والكذب لذاته.ج: أخبار»[46]

---

[44] - لسان العرب، تحقيق محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، 1999، ج 4، ص12

[45] -- أحمد الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان،(د- ت)، ص62.

نستنتج مما سبق ذكره أن الخبر والنبأ لابد أن يتضمن نقل علم أو حدث أو قول مأثور أو حاثة تاريخيةأو أدبية أو اجتماعية ما، سواء عبر الكتابة أو عبر المشافهة، مع تعدد مجالات هذا العلم المنقول وغالبا ما يحتمل هذا الخبر المنقول الصدق أو الكذب.وهو فن يتوسل بالسرد يتخذه وسيلة لإبلاغ المتلقي بما يريد وبما يستحسن من أخبار.

2- بدايات وضع كتب الأخبار:

نجد قلة من المؤلفين ممن يرجعون البذور الأولى للتدوين الخبري إلى ما قبل القرن الأول للهجرة. ومن ذلك رأي أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام»: «ذهب بعضهم إلى أن تدوين العلوم والأخبار لن يحدث إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة. وهذا ما يظهر لنا غير صحيح فإن التدوين بدأ منذ القرن الأول، بل كان قبل الإسلام تدوين. وكان هذا التدوين كثيراً في البلاد المتحضرة كاليمن والحيرة وقليلاً في الحجاز»[47]وتكاد المصادر العربية تجمع على كون عبيد بن شرية الجرهمي أول من ألف كتاباً في الأخبار زمن معاوية بن أبي سفيان وبأمر منه. حيث تروي المصادر أن معاوية استقدم عبيداً، وطلب منه أن يجيب عن جملة من الأسئلة المتعلقة باهتمامات الناس العامة، وما يثير انتباههم من الأخبار، فانصرف عبيد إلى حكاية ما تواتر مما له علاقة بأخبار الماضين والمتقدمين، وملوك العجم والعرب. ثم دعا معاوية ديوانه وكتّابه أن يدونوا كل ذلك. ومما يروى في هذا الشأن: «وفد عبيد بن شرية على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق

---

[46]--المعجم الوسيط، مطبعة مصر، 1961، ج1، ص215

[47]- أحمد أمين -فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 10، (د – ت)، ص 166.

الناس في البلاد .وكان استحضره من صنعاء اليمن. فأجابه إلى ما أمر. فأمر معاوية أن يدوّن، وينسب إلى عبيد بن شرية»[48]

3- الغاية من وضع كتب الأخبار :

أفصح المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب في إطار حديثه عن فضائل الأخبار من الوقوف عند أبرز الغايات المتوخاة من هذا الفن معبراً عن ذلك بقوله: «....كل علم من الأخبار يستخرج، وكل حكمة منها تستنبط، والفقه منها يستثار، والفصاحة منها تستفاد، وأصحاب القياس عليها يبنون، وأهل المقالات بها يحتجون، ومعرفة الناس منها تؤخذ، وأمثال الحكماء فيها توجد، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس، وكل غريبة منها تعرف، وكل عجيبة منها تستطرف، وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل..... وبعد فإنه يوصل به الكلام، ويتزين به في كل مقام، ويتجمل به في كل مشهد، ويحتاج إليه في كل محفل»[49]

إن المتأمل لهذه المقولة يلاحظ أن صياغة الأخبار استهدفت جملة من الغايات، استهلها المسعودي بالمقصدية المعرفية، معتبراً أن الخبر مصدر وأصل كل العلوم والمعارف. كما شدد على حضور الغاية الأخلاقية للأخبار .فضلاً عن ذلك شكل تحقيق الأنس، واللذة النفسية، وإمتاع فئات المتلقين عنصراً بارزاً في تحديد المسعودي للغايات الفنية، معتبراً الخبر حلية يتم بها توشيح الكلام في محافل مختلفة.

---

[48]--ابن النديم، الفهرست، دار المعارف، بيروت، 1978، ج1،ص 132

[49]- – مروج الذهب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد، المغرب، ج2 ص 67

ولم يفت القلقشندي التنبيه إلى الغاية المعرفية للأخبار، والإشارة إلى أهميتها إلى جانب غيرها من المعارف في توشيح الكتابة: «لابد للكاتب من النظر في جمل الفقه والحديث، ودراسة أخبار الناس، وحفظ عيون الأخبار، ليدخلها في تضاعيف سطوره، متمثلاً بها إذا كتب أو يصل بها كلامه إذا حاور»[50] والمتأمل في كتب الأخبار يجد إشارة من لدن أصحابها لبعض هذه الغايات ضمن مقدمات مؤلفاتهم، أو بين ثنايا أخبارهم. وبذلك نلفي البعد المعرفي والأخلاقي حاضراً في تقديم التنوخي للنشوار، حيث يلح على ضرورة إخراج هذا الفن للمتلقي خشية الضياع الذي بدأ يتربص به بوفاة المشايخ الذين يشكلون مادة هذا الفن. كما ركز على أهميته في تهذيب الأخلاق، والتذكير بمكارمها، والتحلي بفضائلها. ومن ذلك: «فلما تطاولت السنون، ومات أكثر أولئك المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن. ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذي إن مات لم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا، لا تأتي من الفضل بما تحتوي عليه تلك الأخبار من النبل. فيستغني بما يشاهد من نظيره عن حفظ ما سلف وتحبيره، بل هي مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدمين وضرائبهم، وطبائعهم ومذاهبهم»[51] ويشدد صاحب «كتاب الأغاني» هو الآخر على حضور البعد الأخلاقي والتعليمي في تصنيف الأخبار مؤكداً أن الارتواء من حياضها لا يقف عند حدود فئة معينة. ولا يختص بسن محددة، بل ينسحب على فئات عمرية مختلفة، وفي ذلك

[50]-- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ج1، ص 141

[51]-- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، (د- م)، 1971، ج 1، ص 12 – 13.

يتحدث عن نصوصه الخبرية بقوله: «تجمل بالمتأدبين معرفتها، وتحتاج الأحداث إلى دراستها، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها»[52]

ولعل الدين الإسلامي كان علة ظهور هذه الأخبار التي يمكن وسمها بالتعليمية أو الدعائية فـ: «القرآن بالدرجة الأولى والسنة النبوية بعد ذلك، قد كانا مرجعاً للرواة الذين ينطلقون منهما عادة،فيصوغون من الأخبار ما يكون معززاً للعقيدة، شاحذاً للإيمان، أو ما يكتفي باستلهام القرآن والحديث لصياغة أخبار تؤكد أن كل ما ورد فيها صادق لا يرقى إليه الشك»[53]

إن بروز هذه المقصديات لا يلغي حضوراً لوظائف أخرى ضمنية يقصر المجال عن استحضارها، حيث تفترض دراسة مستقلة، تقوم على التحليل النصي، وتحديد نظام العلاقات القائمة بين مكونات الخبر، واستكناه طبيعة الروابط الممكنة بين المستوى الماهوي للنص والمستوى القيمي والتداولي.والحياتي.

4–خصائص السرد في كتبالأخبار:

يتميز السرد في الأخبار التراثية بجملة من الخصائص الفنية والموضوعاتية، يمثل بعضها قاسما مشتركا بين جميع الكتاب في هذا المجال ويمثل البعض الآخر خصائص تفرد بها بعض الكتاب دون غيرهم حتى عرفوا بها وعرفت بهم.

1– الإسناد : الإسناد آلية سردية ، يحرص المؤلف على توافرها في النص استجابة لنزوع ثقافي عربي يؤثر الصدق والواقعية، فالخبر لا يعرف به إلا إذا كان الذي يبلغه معروفًا بالصدق والعدالة. بل "إن الخبر الذي تتوافر فيه

[52]-- كتاب الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج1، ص2.

[53]-- الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، مجموعة المدارس، 2004 - ص 646.

الشروط المطلوبة هو الخبر الذي يبلغه عدة رواة لا يتعارفون وبالتالي لم يتفقوا على إذاعة خبر كاذب . فهاجس الإسناد الأساس هو الإقناع بصدق الكلام وحقيقة الحدث"[54]وربّما يكون " الخبر في أصله تاريخًا ، فهو نوع من التفصيل لحادث ذي قيمة في حياة الجماعة"[55]لذلك غالبا ما يسبق النص الإخباري في كتب التراث ب: أخبرنا/ أنبأنا / حدثنا / وروى لنا فلان/ وبلغنا عن فلان ..إلخ وما ذلك إلا تأثرا برواية الحديث والعنعنة فيه وإسناده إلى أناس ثقات لا يشك في صدقهم.

2- الحرص على نقل الوقعة متتابعة مترابطة : إن من أخص خواص الخبر تأكيده على نقل الواقعة الإخبارية نقلًا متتابعًا دون إجراء أية انحرافات تخلخل بنية متنها. "فالرهان هنا ليس على المراوغة ومحاولة الإخفاء والإرجاء والتشويق ، بل في النقل الأمين والتمثل الواقعي"[56]

3- المضمون الطريف النادر: وتتضح أهمية الخبر الأدبي من مضمونه القائم " على حادثة طريفة أو نادرة تدل دلالة واضحة على خلق ثابت، فهو قصة شديدة البساطة . وإنما يظهر فن الكاتب فيما يسوقه من حوار ، فهو لا يضحي بالنبرة الطبيعية للكلام في سبيل فصاحة اللغة ، وهو يجعل حديث المتكلم دالا على شخصيته، حتى لتكاد لا ترتسم منه صورة كاملة"[57]

4- التركيز ووحدة الموضوع :غالبا ما يأتي الخبر في كتب الأخبار مركزا على حدث ما له أثره في مسار حياة الناس الاجتماعية أو الثقافية، أو شخصية ما لها

---

[54]--عبد الوهاب شعلان ، السرد العربي القديم البنية السوسيو ثقافية والخصوصيات الجمالية ، في مجلة الموقف العربي ، دمشق ، اتحاد الكتاب، ع 412 ، س 35 ، آب 2005

[55]--شكري محمد عياد ، القصة القصيرة في مصر : دراسة في تأصيل فن أدبي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط2 ، 2009م ، ص 23.

[56]-- عبد الوهاب شعلان ، مرجع سابق.

[57]-- شكري عياد ، مرجع سابق ، ص 27

مكانة في الذاكرة الجماعية للأمة ويكون في سرد أخبارها فائدة للجميع أو موعظة لهم، ولا يتعدى الخبر في هذه الحالة ما وضع له في الأساس، ولا يتسع إلى أحبار أخرى مصاحبة أو متفرعة.

التنوع الأجناسي: فرغم أن كتب الأخبار تتوسل بالسرد لتقديم الخبر إلا أنها لا تنفك تجمع بين مختلف الأجناس التعبيرة المعروفة، القصة/ الشعر / الحكمة / الحديث الديني/ التاريخ.

5– تضمين الدافع إلى نقل الخبر: وغالبا ما يكون الدافع؛ مفارقة في الشخصية المنقول عنها،أو طرافة في الحدث،أوفائدة أدبية،أو موعظة مؤثرة..

6–الإيجاز والحوار : حيث يأتي الخبر موجزا، يبتعد فيه مؤلفه عن الإطناب إذا كان الخبر يتعلق بطرفة أو بنادرة أو بأبيات شعرية، ويعتمد الحوار إذا ما كان الخبر متعلقا بحادثة وقعت بين أشخاص كثر.

بقي أن نؤكد على أن" الخبر في كتب الأحبار نوعان :

أ–أخبار بسيطة ، وهي في غالبها تتحمل حدثًا بسيطًا ، يتردد فيها قول / مثل / تفسير معنى كلمة / ذكر بيت شعري...

ب–أخبار مركبة ، وهي التي تحتوي على السرد / الحكاية عن أشخاص كانت لهم أفعال أو أحداث ، ونُقِل عنهم حوار معين ، أو وصف معين. "[58]

5– مثال على الخبر في كتب التراث :

[58]-- د. جمال حسين حمّاد- من أشكال السرد العربي القديمالخبر الأدبي- **http://aljasra.org/archive/cms** مارس **2014** تاؤيخ الدحول : **2022/9/25**

ورد في كتاب العقد الفريد خبر عن الخليفة المنصور وقد عرف عنه امتناعه عن إنفاق المال على جاشيته ومقربيه."عن إبراهيم بن أحمد عن الشيباني قال:كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستترًا ، فكان يجلس في حلقة "أزهر السمان " المحدّث.

فلما أفضت الخلافة إليه ، قدم عليه " أزهر" ، فرحب به وقربه. وقال له : ما حاجتك يا أزهر؟قال :داري متهدمة ، وعليّ أربعة آلاف درهم ، وأريد أن يَبني " محمد " ابني بعياله. فوصله باثني عشر ألفًا ، وقال :قد قضينا حاجتك يا أزهر ، فلا تأتنا طالبًا. فأخذها وارتحل.. فلما كان بعد سنة أتاه . فلما رآه أبو جعفر، قال :ما جاء بك يا أزهر؟قال : جئتك مُسلمًا. قال :إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالبًا.

قال :ما جئت إلا مسلمًا.قال :قد أمرنا لك باثني عشر ألفًا ، واذهب فلا تأتنا طالبًا ولا مسلمًا.فأخذها ومضى .. فلما كان بعد سنة أتاه ، فقال :ما جاء بك يا أزهر؟قال :أتيت عائدًا.قال : إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالبًا .قال : ما جئت إلا عائدًا. قال : أمرنا لك باثني عشر ألفًا فاذهب ولا تأتنا لا طالبًا ولا مسلمًا ولا عائدًا. فأخذها وانصرف.. فلما مضت السنة أقبل ، فقال له : ما جاء بك يا أزهر؟قال : دعاء كنتُ أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين ، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال :إنه دعاء غير مستجاب؛ وذلك أني قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفًا، فاذهب وتعال متى شئت فقد أعيتني فيك الحيلة".[59]

[59]- ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي ، العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد زين وإبراهيم الإبياري ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2004م ، ج2 ، ص326

****

****

الدرس السادس : جماليات السرد الاجتماعي في الأدب العربي القديم

تمهيد :

يعبر السرد الاجتماعي عن مرحلة من النضج التي بلغها السرد العربي القديم، حيث بدأت الكتابات السردية تتجه نحو معالجة القضايا الاجتماعية المستجدة في المجتمع العربي الإسلامي، وبدأت تضع يدها على بعض الأمراض الاجتماعية التي استشرت فيه، بأساليب مختلفة تميل إلى السخرية أحيانا ، وإلى الجد والصرامة أحيانا أخرى، فكانت المقامات بتأنقها اللغوي ونقدها اللاذع، وكانت أحاديث الجاحظ في كتابه البخلاء، أمثلة واضحة على اتجاه السرد العربي القديم إلى معالجة الظواهر الاجتماعية الفاسدة والدخيلة على المجتمع العربي الإسلامي، خاصة في العصر العباسي وهو العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية "حيث تمتد فترة حكم العباسيين من عام 132 هـ حتى 656هـ ..

وهو عصر علم ومعرفة وحضارة وتطور، حيث ظهرت فيه مظاهر الترف وتحسن المعيشة لفئات واسعة "[60] لقد شكلت هذه النقلة النوعية في حياة الناس بالمدنالجديدة العامرة في ظل تفوت طبقي كبير، وفي ظل امتزاج بين كثير من الأعراق والثقافات، ميدانا خصبا لبروز قضايا اجتماعية جديدة لم يعهدها المجتمع العربي من قبل، كالصراع الطبقي والشعوبية واللصوصية والاحتيال وكلها قضايا بدأت تتجلى في المجتمع الجديد.

[60]- أبو أحمد زقزوق- ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي - Amrsal.com - 2023/02/14 تاريخ الدخول 2023/02/24.

" حيث أدى انتشار الرفاهية ومظاهر الترف إلى انتشار المجون ومجالس الشرب، ومقابل ذلك ظهر المد الصوفي كردة فعل على انغماس الناس في الملاذ الدنيوية، كما ظهرت الفروق الطبقية بين أفراد المجتمع وهذا ما أنتج صراعا بين هذه الطبقات، كما ظهرت الأفكار الشعوبية المعادية للجنس العربي خاصة عند الفرس بعد دخولهم الإسلام"[61] وكان لكل اتجاه أنصاره والمنافحين عنه والداعين إليه شعرا ونثرا.

1- مفهوم السرد الاجتماعي :

السرد الاجتماعي هو اتجاه الكتاب إلى تسخير النص السردي لمعالجة قضايا المجتمع، من خلال تسليط الضوء على المظاهر الاجتماعية المستجدة بالنقد والتحليل، بأساليب تميل إلى تحكيم العقل والفطرة السليمة ومجموعة القيم المتعارف عليها سواء كانت قيم دينية أو فلسفية أو اجتماعية، والغاية منه إصلاح ما اعوج من أخلاق الناس وعاداتهم "حيث تحمل – النصوص علامة المجتمع الذي تنشأ فيه وتتعلق العناصر المكونة لها بالثقافة والعادات"[62]

حيث يركز السرد على النماذج الاجتماعية محاولا إيجاد المعادل الموضوعي لها لغة وسردا. كون الأدب فن من الفنون الجميلة يعكس مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية وسيلته في التعبير عن تلك القيم الكلمة المعبرة الموحية.وقد شاع في العصر العباسي مثل هذا السرد خاصة في كتابات الجاحظ مثل كتاب البخلاء، وكتابات الحريري، وبديع الزمان الهمداني في ما يعرف بفن المقامات.

2- عوامل ازدهار السرد الاجتماعي :

[61]--فاطمة علي . كتب عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي . - أكتوبر 2022- Mqal.com .

[62]--مبروك دريدي. المتخيل الاجتماعي في القصة الشعبية، النظام الاجتماعي والسرد. الثقافة الشعبية العدد 28 موقع . folkculturebh.org . تاريخ الدخول : 2022/2/21

1- ازدهار المجتمع العربي في العصر العباسي، واتساع رقعة الدولة وامتزاج لأعراق والثقافات مما نتج عنه دخول الكثير من العادات والتقاليد الجديدة والأفكار المختلفة المتصارعة، التي شكلت مناخا خصبا لنشأة السرد الاجتماعي الذي عبر عن هذه التحولات نقدا واستحسانا.

2- ظهور المدن الكبرى العامرة مثل مدينة بغداد والبصرة والكوفة وسامراء وبلاد الأندلس، وفيها من الثقافات والعادات الشيء الكثير من مخلفات الشعوب المشكلة للمجتمع العربي الإسلامي، وفي حوار هذه الثقافات والعادات مجال رحب للكتابة السردية

3- ظهور الفلسفة وانتشار العلوم العقلية، وعلم الكلام " حيث كانت الرغبة عارمة في الدفاع عن الإسلام وإيجاد طرق لتفسير القرآن وبيان السنة السبب الرئيسي لاعتناق الفلسفة وعلم الكلام"[63]

وقد احتضن السرد هذه الأفكار وعبر عنها من خلال تصوير اختلاف وجهات النظر بين الفئات الاجتماعية المختلفة، خاصة في مجال طلب الرزق والتوكل والسعي والتماس الوسيلة ف ذلك مثل ما نجد في المقامات وأدب الشطار،وكتب الجاحظ مثل كتاب البخلاء.

4- تجلى الفروقات الطبقية في المجتمع العباسي ونشأة الصراع بين هذه الطبقات رغبة في الرقي الاقتصادي والطبقي.فكانت الطبقة الوسطى وطبقة الحكام وحاشيتهم وطبقة العمال والمهنيين..ولكل منها اهتماماتها وطرق عيشها وثقافتها الخاصة، وكل طبقة تدخل في صراع مع الطبقة التي فوقها بحثا عن مكتسبات مادية ومعنوية، وهي مجال اهتمام الكتابة السردية بامتياز.

[63]--فرج عبد الغني - علم الفلسفة في العصر العباسي - موقع: 12.mawdoo3.com أكتوبر 2022- الدخول : 2023/03/15

5- ظهور الشعوبية كنزعة معادية للجنس العربي وللثقافة العربية الإسلامية، وكانت بدايتها مع الفرس الذين دخلوا الإسلام لكن اعتزازهم بأصولهم الفارسية جعلهم يتأففون من العرب ويرون فيهم جنسا أقل رقيا من الفرس، لذلك هب مجموعة من الكتاب للدفاع عن الثقافة العربية ضد هذه الموجة وفي مقدمة هؤلاء الجاحظ.

3- جماليات السرد الاجتماعي وخصائصه :

يتميز السرد الاجتماعي في الأدب العربي القديم بجلمة من الخصائص الفنية والموضوعاتية المضمونية.

- حيث يمكن القول أن مجموع النصوص التي تنتمي إلى هذا المجال، جاءت ضمن كتب مستقلة بذاتها وحملت عناوين معبرمعبرة عن محتواها مثل : كتاب البخلاء للجاحظ وهو كتاب عرض فيه صاحبه لخلق البخل عند أهل فارس وأهل مرو خاصة، إذ ينظرون إليه كفلسفة للإقتصاد وتدبر المعيشة وهو عندهم من الصفات المحمودة التي يجب التمسك بها وتعلم تقنياتها حتى لا يقع الإنسان في التبذير، فتدركه الفاقة والفقر وتدفعه دفعا إلى سؤال الناس

- النقد اللاذع للسلوك المستهجن من منظور الشريعة ومن منظور التقاليد العربية العريقة، حيث تصور شخصية الرجل البخيل في كتاب الجاحظ بطريقة منفرة، من حيث المظهر الخارجي ومن حيث المعتقدات الفاسدة ومن حيث التركيبة النفسية المضطربة القلقة والمتوترة على الدوام وكأن الجاحظ يعتبر صاحب هذا الخلق من المرضى النفسانيين الذين يتطلب الأمر علاجهم مما هم فيه

– تعدد القصص وتنوعها في الكتاب الواحد، مع تعدد الحالات الاجتماعية المرصودة، حيث يوظف الجاحظ مثلا: أبطاله من مختلف الشرائح نساء/ رجال / أطفال/ شيوخ/ شبان/ فقراء /أثرياء/أهل المدن / أهل البدو..وتفرد لكل حالة منها قصة خاصة.

أما من الجانب الفني فإن السرد الاجتماعي يعتمد على:

– الحوار كمبدأ أساسي يقدم من خلاله الكاتب شخصياته وهي تعبر عن ذاتها وأفكارها وتدافع عنها، فغالبا ما يدور الحوار بين البطل وبين النكرين عليه سلوكه، فتكون تلك فرصته لتقديم وجهة نظره السبب الذي يدفعه إلى هذا السلوك أو ذاك.وإن كانت بعض القصص تأتي على لسان السارد وهو الرواوي الذي يختاره صاحب الكتاب لتقديم القصة.

– الإسناد :وهو نسبة القصة إلى راوي وتأتي هذه الخاصية بصيغة حدثنا (فلان قال) مثل ما نجد في فن المقامات حيث يسند الحديث إلى : السروجي/ أو أبو الفتح السكندري/ أوبن هشام / أو الحارث بن همام/وغيرهم.

– النهايات المفتوحة وغير المتوقعة:

– السخرية :المبنية على المفارقة وصور الهزلية و الفكاهية للشخصيات

– التأنق اللغوي والأسلوبي:

– الإكثار من المحسنات البديعية

– المزج بين الشعر والنثر

4- نموذج من فن المقامات :

حدثنا عيسى بن هشام قال:

حدا بي إلى سجستان أرب فاقتعدت طيتته، وامتطيت مطيته، واستخرت الله في العزم جعلته أمامي، والحزم جعلته إمامي، حتى هداني إليها، فوافيت دروبها وقد وافت الشمس غروبها، واتفق المبيت حيث انتهيت، فلمى انتضى نصل الصباح، وبرز جيش المصباح، مضيت إلى السوق أختار منزلا، فحين انتهيت من دائرة البلد إلى نقطتها، ومن قلادة السوق إلى واسطتها، خرق سمعي صوت له من كل عرق معنى، فانتحيت وفده حتى وقفت عنده، فإذا رجل على فرسه، مختنق بنفسه، قد ولاني قداله، وهو يقول : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا باكورة اليمن وأحدوثة الزمن، أنا أدعية الرجال، وأحجية ربات الحجال .."[64]

– الراوي: عيسى بن هشام وهو الراوي الضمني الذي ينقل عنه الهمداني وهي تقنية سردية اختص بها السرد العربيحيث يسند الحديث لراوي يكون ناقلا للحديث ومشاركا في الحدث، وشاهدا عليه.

المكان :مدينة سجستان، وهي من المدن المهمة في الدولة الإسلامية وهو من الثغور الإسلامية حيث تقف في وجه أي عدوان قد يصيب الدولة من لشمال الشرقي مثل زنابلة كابل وزابلستان وبلاد الهند، لذلك فهي مسكن الفرسان والمرابطين للدفاع عن الثغور .

الشخصيات :

[64]- المقامة السجستانية - لبديع الزمان الهمداني - عالم الأدب- .adabworld.com . يوم : 2021/01/25

عيسى بن هشام : ناقل الحديث والشاهد عليه والمشارك فيه

الفارس : وهو موضوع القصة ومثار الاهتمام

– السمات الفنية:

الجمل القصيرة السريعة مع استعمال المحسنات البديعية مثل السجع ..

****

****

الدرس السابع : جماليات السرد الفلسفي

1– مفهوم السرد الفلسفي :

بعد التطور الكبير الذي شهده السرد العربي القديم بدأت أشكال و أنواع سردية جديدة تعرف طريقها إليه، مثل السرد على لسان الحيوان والسرد العجائبي والسرد الصوفي والسرد التأملي الفلسفي، وذلك نتيجة حتمية لرقي الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية وازدهارها خاصة في الحواضر العربية الإسلامية مثل بغداد ودمشق وبلاد الأندلس،لقد احتضن السرد كل الموضوعات التي يتطرق إليها الناس في حياتهم اليومية وجلساتهم العلمية ومغامراتهم في مواجهة الصعاب واكتشاف الجديد وفي اكتساب الرزق وغيرها.
ومن الموضوعات الجديدة في السرد العربي القديم والتي تعبر عن تطوره ورقيه الفكري والثقافي، السرد الفلسفي، والمقصود به تلك المؤلفات التي اتخذت من الأفكار الفلسفية موضوعا للسرد من خلال تسريد الفكرة الفلسفية وإلباسها

ثوب الحكاية والقصة،مثل مافعل ابن الطفيل في بحثه عن أصل الإنسان وحاجة الإنسان إلى الدين وقدرته على الوصول إلى الله بفطرته السليمة "قامابنطفيل 581 هـ 1185 – مفياختيارطريقالتصوف،وصولاإلى"حكمةالإشراق"

وهيالمرحلةالأكثرسموافيالتصوفالروحيوالعقلي،التصوفالقائمعلىالنظروالتدبروالاعتبار ثمالكشف،والإشراق،وهويستعينبأكثرأساليبالتعبيرغموضاوإيماءوتعميةلتدويرسيرتهاال ذاتيةمستعيراحكايةرمزيةتمثيلاالخيارهاالعقائدي،وبحثافيفلسفةالإشراقعنده."[65]

2– العلاقة بين الأدب والفلسفة :

لعل ذلك ما يوحي بأن العلاقة بين السرد والفلسفة علاقة متجدرة في القدم خاصة كفعل حكي وقص، "حيث يقول ديدرو : إن الحكيم – الفيلسوف– كان فيما مضى فيلسوفا شاعرا وموسيقيا تلك المواهب انحرفت عند انفصالها عن بعضها بعضا، فضاقت دائرة الفلسفة وافتقر الشعر للأفكار فلم تعد الحكمة بعد فقدانها تلك الأعضاء قادرة على أن تبلغ سماع الشعوب بنفس الفتنة"[66]

لقد دأب الفلاسفة العرب منذ القدم على استخدام بعض الأجناس الأدبية لإيصال الفكرة الفلسفية، بما في ذلك الحكاية والقصة والخرافة وحتى الشعر لأن في ذلك تشويق للمتلقي وتقريب للفكرة،" فالفلسفة بحث عن الحقيقة ووسيلتها اللغة والأدب يبني عوالمه على اللغة فهي القاسم المشترك بينهما ..وما تتوصل إليه الفلسفة يجسده الأدب"[67]

3– تجليات السرد الفلسفي في السرد العربي القديم :

---

[65]---عبد الله إبراهيم موسوعة السرد العربي، دار فارس للنشر..الأردن ط1 ..2005. ص 175

[66]--نقلا عن --أبو بكر العبادي . بين الفلسفة والأدب علاقة ملتبسة دامت قرونا.. موقع alarab.co.uk. le . 1609/2020

[67]--فاطمة الحاجي – العلاقة بين الفلسفة والأدب . موقع : alfaq.com .le 24/12/2017

ظهرت الكثير من المؤلفات العربية التي توسلت بالسرد لإيصال الفكرة الفلسفية، وقد ساقت أفكارها في قالب قصصي سردي تميز بالأناقة اللغوية و التسلسل الحكائي والقصصي، كتجسيد لنظريات فلسفية انتشرت في العصور الأولى للحضارة العربية الإسلامية، خاصة في فترة ازدهار الحضارة في العصر العباسي، الذي شهد الكثير من النزعات الفلسفية وفرقها المختلفة والمتنازعة فيما بينها، كأصحاب النقل وأصحاب العقل وفرقة المعتزلة، وفرق التصوف بالإضافة للعلماء والمفكرين الذين كانت لهم آراؤهم الخاصة في الحياة والموت والأديان والدنيا والآخرة والثواب والعقاب، أمثال المعري–1057/973م– صاحب كتاب رسالة الغفران، وبن طفيل1100–1185م– الذي ألف كتاب حي بن يقضان الذي أبرز فيه رؤيته لبدأ الخلق وبعض فلسفته في الوجود وعلاقة الإنسان بالله وبن عربي558 –1164م صاحب الكتب الكثيرة في التصوف وفلسفة التصوف مثل كتاب الفتوحات المكية وكتاب فصوص الحكم وكتاب المراتب السبعة..

وكلها كتب تحاول تجلية فلسفة التصوف عند بن عربي وعند معاصريه في بلاد الأندلس كذلك الشأن عند بن حزم الظاهري الأندلسي994– 1060م صاحب كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف وهي فلسفته الخاصة في العلاقات الاجتماعية وخاصة وجهة نظره في الحب والعشق وأثر التنشئة الأولى في حياة الإنسان وطباعه وميوله.

4– خصائص السرد الفلسفي وجمالياته :

1– يوضع السرد الفلسفي لغاية عقلية لا لغاية المتعة والترويح ولعل ذلك ما يميزه عن السرد الأدبي المحض، لذلك نراه أكثر تخففا من الصنعة اللفظية محاولا انتقاء العبارة المعبرة القريبة لفهم المتلقي والتي تصيب المعنى مباشرة دون تعدد

ولا تلون." جاء على لسان السارد ف كتاب حي بن يقضان – فلما رأى أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله، تحقق له أنه أحرى أن لا يعود إليه، بعد أن حدث فيه من الخراب و التخريق ما حدث، فصار عنده الجسد كله خسيسا لا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي اعتقد في نفسه، أن سيسكنه مدة ويرحل عنه"[68]

2– المحتوى الفكري القائم على الحجة والقياس والراجح عند العقلاء و العلماء ويحكم كل ذلك المنطق الصارم تؤدي مقدماته إلى نتائج لا محالة حقيقية وثابتة.مع فارق واضح بين الفلسفة العقليةوالفلسفة الصوفية الروحية"وقد لفت نظر الكتاب والباحثين منذ زمن بعيد ما تمتاز به لغة الصوفي من دلالات خاصة، قد تخرجها من الدلالات المتعارف عليها في اللغة العادية، فالشطح والقهوة والحب والوجد والغيبة والحضرة، والولي والقطب والمريد..كلها مصطلحات صوفية أبدعتها اللغة الصوفية وهي تحتاج إلى تأمل عميق لفهم دلالاتها ووضعها في سياقها الخاص، إنها بحر عميق لا قرار له، غامض متعدد المعاني"بل إن هندستها وتشكيلها كذلك يمنحانها القدرة على التشظي"[69] وهذا ما ينتج عنه حيرة المتلقي وبحثه الدائم عن المعنى "الذي يتمنع على القاريء مما يجعل الإنسان في بحث دائم عن المعنى لا مالكا له"[70]

3– المنطق الجدلي و الحجاجي: وهو المنطق السائد في مجال السرد الفلسفي حيث يكثر المؤلف من الحجج التي تدعم رأيه وتؤيد فلسفته، ويقوض من جهة أخرى آراء مخالفيه وحججهم جاء في رسالة الغفران "فيبتدئ بزهير فيجده شابا

---

[68]- ت– بوملحم –اقتباسات كتاب حي بن يقضان– لابن طفيل – موقع :.noor-book.com يوم :2021/03/25

[69]––عثمان رواق – جماليات الرواية الصوفية في رواية سفر السالكين– لمحمد مفلاح – مجلة قراءات مجلد 12– العدد 1–س2020ص 227

[70]––– الزواوي بغورة، الفلسفة و اللغة، دار الشرق الأردن، الطبعة1، سنة 2003، ص37

كالزهرة الجنية قد وهب له قصر من ونية وكأنه ما لبس جلباب هرم، ولا تأفف من البرم وكأنه لم يقل الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

فيقول خيرا خيرا أنت أبو كعب وبجير فيقول نعم فيقول بم غفر لك وقد كنت زمن الفترة، فيقول كانت نفسي عن الباطل نفورا فصادفت ملكا غفورا وكنت مؤمنا بالله"[71]

4- يتناص الخطاب الفلسفي مع كل الخطابات الفلسفية التي سبقته الموضوع الذي يتناوله، لكنه يظل خطابا متجاوزا لما هو كائن، باحثا عن أسئلة جديدة لمستجدات عقدية ونفسية واجتماعية وسياسية وثقافية، لذلك نجد أن حكاية حي بن يقضان كتبت أكثر من مرة على يد فلاسفة مسلمين مثل ابن سينا ثم ابن الطفيل وكل منهما قدم فلسفته الخاصة التي يريد بثها حسب معتقداته وقناعاته.

5- يجمع الخطاب الفلسفي في السرد العربي القديم بين الدين والقضايا الاجتماعية والأخلاقية في محاولة توفيقية بين مقتضيات الشريعة ومقتضيات الحياة العامة، وعادة ما يلجأ إلى المجادلة والتحليل والاستشهاد لإقناع المتلقي بصواب الفكرة " فهو خطاب يعتمد المنطق أساسا أساسيا لبدء الخطاب الفلسفي، ثم المناقشة لتحديد وجهات النظر، ثم تقسيم الفكرة إلى أفكار جزئية تفحصبشكل مفصل، وبعده يتم توليد الفكرة الجديدة ويتم كل ذلك في إطار التأمل الشامل أي دراسة الفكرة من كل جوانبها"[72]

5- نموذج من السرد الفلسفي : قصة حي بن يقضان لابن الطفيل

---

[71]--مقتطف من كتاب رسالة الغفران، موقع :selsabil.com يوم : 2022/08/25

[72]--هبة الله محمد . ماهي مميزات الخطاب الفلسفي - يوم 2021/03/8 - موقع : almrssal.com - الدخول : يوم 2022/8/23

تروي قصة حي بن يقضان صة هذا البطل الذي نشأ في جزيرة منفردا، وقد ضمنها صاحبها قضايا فلسفية وجودية وعقدية، فرمز للإنسان بصفة عامة وعلاقته بالكون والدين، وما يمثله الإيمان بالله من فطرة سليمة لدى الإنسان – هي قصة فلسفية كتبها ابن سينا ثم أعاد كتابتها شهاب الدين السهروردين ثم كتبها بن الطفيل وأعاد كتابتها بن النفيس.

ركز بن الطفيل على جملة من الأفكار في هذه القصة التي مثلت أفكاره وفلسفته،ومنها

1– الإنسان قادر بمفرده على الوصول إلى الكمال الإنساني من خلال التأمل في الطبيعة البكر دون الحاجة إلى معلم.

2– إن العلوم القائمة على التجربة والملاحظة والتجريب والاستدلال الصحيح لا تتعارض ومقتضيات الشريعة والوحي الإلهي.مع إمكانية الفرد الوصول إلى المعلومات بالأمل والاستدلال وهي امكانية متاحة لكل إنسان." إنها قصة تعرض سيرة المعرفة الإنسانية فهي تعرض قصة ربيب الظبية حي بن يقضان؛ وكيف تمكن بفطرته السليمة الفائقة من الارتقاء بالمعرفة الإنسانية من الحواس والتجربة إلى المعرفة العقلية القائمة على نتائج ومعطيات ما جربه وخبره في عالم الكون"[73]

[73]– أنور أبو بندورة – الأبعاد الفلسفية في قصة حي بن يقضان – عند بن الطفيل– 2009/3/22– مؤتمر نت– موقع :web.archive.org الدخول : 2020/08/23

الدرس الثامن : جماليات السرد العجائبي

من الأشكال السردية التي زخر بها الأدب العربي القديم السرد العجائبي، ولعل القارئ لكتاب ألف ليلة وليلة سيلاحظ مدى التعجيب المبثوث في هذا المؤلف، حيث الجزر البعيدة المأهولة بالغيلان، وحيث المخلوقات المشوهة والمفترسة تتجول بكل حرية مهلكة كل من يحل بهذه الجزر، وقصص الجان والعفاريت والمصابيح العجيبة والبسط الطائرة، والتي قد تمنح الإنسان ما يريده في لمح البصر، وقد تنقله إلى ما شاء من البلاد في أية لحظة شاء ذلك، وحيث الرحلات العجيبة للسندباد والمشاهدات العجيبة التي يجدها في رحلاته، كل ذلك يدخل ضمن السرد العجائبي.

1-مفهوم السرد العجائبي :

العجائبي **fantasstic** مفهوم نقدي يتعلق يالسرد الحكائي تزايد الاهتمام به منذ أفرد له الناقد البلغاري – تزفيتان تودوروف– كتابا خاصا عام **1970** بعنوان مدخل إلى الأدب العجائبي" وهو من المفاهيم العصية عن التحديد لما يحيطه من أخطار ومزالق حسب – تودروف– والذي أورد في تعريف العجائبي – التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما هو يواجه حدثا فوق طبيعي – حسب الظاهر– فلا يدوم العجائبي إلا زمن التردد، تردد مشترك بين القاريء والشخصية اللذين لا بد أن يقررا فيما كان الذي يدركانه

راجعا إلى الواقع كما هو موجود في نظر الرأي العام أم لا"[74]ويحدد له تودوروف ثلاثة أركان أساسية هي "

" 1- ضرورة عد عالم الشخصيات عالم أحياء والتردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق طبيعي للأحداث

2- التردد قد يكون محسوسا عند شخصية داخل النصكما هو محسوس عند المتلقي

3- استبعاد القراءة الرمزية أو الشعرية للنص العجائبي مع التنبيه أو الركنين الأول والأخير ضروريين أما الثاني فهو احتمالي"[75]

نستنتج مما سبق أن الأدب العجائبي لا يدرك إلا من خلال التفاعل بين المتلقي والنص المتضمن للتعجيب، ولا يدرك إلا من خلال إحساس المتلقي بما يعتمر في دهن الشخصية داخل العمل من حيرة إزاء الحدث من كونه حدث يمكن تفسيره تفسيرا طبيعيا أو فوق طبيعي، على أن يسود الإعتقاد لدى المتلقي أن ما يقرأه يتعلق بعالم من الشخصيات الحية في واقع ما، وضرورة استبعاد البعد الرمزي في قراءة النص، بذلك نكون أمام عوالم يفترض أنها حقيقية تحدث فيها أحداثا تتجاوز القوانين الطبيعية تجعل الشخصيات كما المتلقي في حيرة من أمره متسائلا كيف لهذا أن يحدث؟

2- العجائبي في السرد العربي:

[74]--العجائبي- الموسوعة العربية - موقع :arab-ancy.com.sy الدخول يوم : 2020/10/20

[75]--م.ن-:arab-ancy.com.sy

يحفل السرد العربي القديم بنماذج كثيرة للسرد العجائبي، نجد له جذورا تضرب في عمق التاريخ الأدبي،وذلك بدية من العصر الجاهلي وما ورد من قصص وأشعار حول الغيلان والسعلاة مثل قول الشاعر:في وصف فعل الغيلان لتضل الناس عن الطريق :

"يا رجل عنز انهقي نهيقا لن نترك السبسب والطريقا

وقد زعموا أنها تظهر في شكل مفزع برجلي عنز، محاولة أن تضلهم عن الطريق الصحيح فلم يكونوا يستجيبون لندائها ونهيقها."[76] لكن مع قدوم العصر العباسي شهد هذا النوع من الكتابة رواجا كبيرا وصار له من المتلقين الشيء الكثير خاصة مؤلفات بن المقفع، وكتاب ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران للمعري وكتاب التوابع والزوابع لابن شهيد، وبعض كتب الجاحظ وكتاب مروج الذهب للمسعودي وكلها من الملفات العجائبية أو تضمنت أدبا عجائبيا.

3- جماليات وخصائص السرد العجائبي

1- إثارة الدهشة الحيرة لدى المتلقي وتشويش الرؤية عنده وزرع الشك عنده حول ما يقرأ هي في الحقيقة حيرة تنتقل من الشخصية داخل العمل إلى المتلقي، بين حقيقة ما يقرأ أي واقع طبيعي أم شيء خارق لكل قوانين الطبيعة.

2- المزج بين الحياة الطبيعية والخوارق فوق طبيعية

3- الإيحاء بالواقعية في الزمن والمكان والشخصيات

4- الوصف المبالغ للظواهر العجيبة

[76]--المسعودي - مروج الذهب - ط بيروت . س1385 هـ . ج2 - ص135/134 باب مايتعلق بأقاويل العرب حول الغيلان

4- أنموذج من السرد العجائبي : كتاب ألف ليلة وليلة

هو كتاب قصص وحكايات عجيبة، ظهر في العصر العباسي ولا يعرف له كاتب ويشاع أنه نقل من الفارسية، يتناول الكثير من الموضوعات ويسرد الكثير من القصص العجيبة منذ بداية القصة الأولى الحكاية الإطار، التي ترتبط برغبة الملك شهريار في الفتك بكل امرأة يتزوجها بعد ليلتها الأولى معه بسبب خيانة تعرض لها من زوجته الأولى مع عبيده، لتتدخل بعدها شهرزاد ابنة الوزير لتنقد بنات جنسها بزواجها من الملك واتخاذها للحكي العجيب وسيلة إلهاء له، حيث تبدأ الحكاية بالمزج بين الحكاية الإطار وبين الحكايات المتناسلة عنها، لتنتقل من عالم إلى آخر من عوالم الحكي العحائبي، فتظهر عوالم الجن والسحرة، والأماكن المسحورة وعوالم التناسخ والتحول، مع ظهور الكثير من الأدوات العجيبة مثل الأباريق المتضمنة للعفاريت، والبساط الطائر، والحيوانات العجيبة التي لا وجود لمثيلها..

****

****

الدرس التاسع : جماليات السرد في أدب الرحلة :

1- مفهوم الرحلة وأدبها :

الرحلة مشتقة من الارتحال وهي تعني الانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا. والرحلة قديمة قدم الإنسان وما من أمة إلا وقد جربت الارتحال بشكل أو بآخر، ولكن ما يهمنا هنا هو الرحلة العربية

المدوَّنة، وفي هذا الصدد لا يمكننا الحديث عن هذا النوع من النثر العربي إلا منذ القرن الثالث للهجري، أما ما قبل ذلك فلا تكاد توجَد نصوص مكتوبة عن السفر عموما، ولا عنه بوصفه نثرا أدبيا. وهكذا، فنحن هنا لا نتحدث عن مجرد السفر أو الارتحال، بل عن السفر الذي كتب عنه صاحبه نصا معينا.

فأدب الرحلة هو ذلك النص الذي يصور فيه الكاتب، بأسلوب أدبي كليا أو جزئيا، ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور، أثناء رحلة حقيقية إلى بلد ما أو مجتمع معين، "بحيث يستقي الكاتب المعلومات والحقائق من المُشاهَدة الحية، والخبرة المباشرة، لا من خياله ولا مما يقرأ أو يسمع. ويعرّف عبد الله حامد أدب الرحلة باختصار بأنه "الكتابة الأدبية عن رحلة واقعية[77]"

2- أدب الرحلة ومكانتهبين الأجناس الأدبية :

- لا تزال كتب الرحلات تمثل معينا لا ينضب للباحثين في العلوم الإنسانية عامة، نظرا لأنها ليست مجرد نصوص بها الطريف والغريب والمثير، بل فيها الكثير من الأبعاد الجغرافية والثقافية والأدبية والشعبية. وكتاب " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة أحد نصوص الرحلات التي أثارت منذ القدم وإلى عصرنا الكثير اهتماما كبيرا، نظرا لأنه حالة فريدة في أسلوبه وبنيته، ووثيقة مدونة تصف مجتمعات عديدة في عالمنا في إحدى الحقب التاريخية، وهو وصف يشمل نواحي مختلفة في هذه المجتمعات.

[77]-- ينظر Hugh Kennedy ."vast explosion of writing and book production . 6 p.2010.

والأدب – في المفهوم الحديث – لا يقتصر على الشعر وفنون النثر والسرد، بل تجاوز هذا إلى مختلف الفنون القولية والمكتوبة التي تعنى بقضايا الإنسان والحياة، فهو "علم يشمل أصول فن الكتابة، ويعنى بالآثار الخطية والنثرية والشعرية، وهو المعبر عن حالة المجتمع البشري، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات"[78]

إذن، أدب الرحلة هو " تشكيل لنص ذاتي / شخصي، بخصوص الأنا والآخر، يتبنين متكيفا في شكل معين، للتعبير عن رؤية معينة، انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية، أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات "[79]فدراسة خطاب أدب الرحلات يتأتى من خلال تناول مادة هذه المدونات "بأدوات عدة تتيحها المناهج النقدية المعاصرة، وهي أدوات تحلل المادة اللغوية، وتكشف من خلال هذا التحليل الكثير من المعطيات: الشخصية للرحالة، والأسلوبية في خصائص أسلوب منشئها، والسردية في عناصر وفنيات الحكايات الواردة فيها، ودلالات ذلك الاجتماعية والثقافية والإثنوجرافية. أي أنه يمكن عبر التحليل العلمي بآليات النقد الحداثي من استنطاق نص الرحلة، ليبوح بالكثير أدبيا وثقافيا واجتماعيا وفكريا، فيكون النص هو المصدر والمرجع، وهذا يكمل عمل الجغرافي والإثنوجرافي وباحث علم الاجتماع، فهؤلاء يلجون النص بآليات مستقاة من المناهج العلمية والمعرفية في دوائر تخصصاتهم، وهو نفس عمل الناقد الأدبي الذي يفعّل أدوات مناهجه؛ أملا في استكمال جهود هؤلاء من

[78]-- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م، ص316.

[79]-- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 20023 ص36

المعطيات اللغوية والأدبية في النص، ورغبة في أن يكون أدب الرحلة جزءا من المصادر الأدبية التي تكشف طبيعة الأسلوب في عصرها، وأنماط السرد فيه"[80].

3- أدب الرحلة بين الواقعية والخيال :

وتُقسم الرّحلاتُ إلى حقيقيّة وخياليّة؛ الواقعيّة منها تكون رحلاتٍ فعليّة قام بها الرّحَّالة لِغرض من الأغراض، وهي ذات قيمة عظيمة لما تُسجّله من حقائق في الجوانب التّاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافِيّة والجُغرافِيّة، أشهرها رحلة الحج.ومن هذا النّوع رحلة لسان الدِّين بن الخطيب التي دَوَّن فيها مُشاهدَاتِه حين رافق سلطان غرناطة أبا الحَجَّاج يوسف الأوَّل في رحلتِه الرَّسميةِ التَّفتيشية إلى مَقاطَعاتِ غرناطةَ الشَّرقيّة عام 748هـ، وكان وزيره آنذاك، والغرضُ من الرِّحلةِ كان تَفَقُّدَ أحوالِ الرَّعيّةِ والثُغورِ الشَّرقية لِمَمْلكةِ غَرناطة، وقد عَنْون رحلته بـ خَطْرَة الطَّيف في رحلة الشِّتاء والصّيف، "وفي هذا العنوان مُفارَقة معنويّة تتجلَّى بما يُوحِيهِ قوله (خَطْرَة الطَّيف) من كَونِ الرِّحلة أقربَ إلى الخيال منها إلى الواقع، فالخَطْرَةُ في اللُّغة هي ما يخطر في القلبِ، والطَّيفُ هو الخَيال أو ما يُطِيفُ بالإنسان في المنام أو في أيّ حالٍ لا يكون فيها بوعيه التّامّ، حتى إنَّ بعض أهل اللُّغة عَدُّوا الطَّيف من الجُنون، ثمَّ يُفاجِئُنا بِمفارقة تمزج بين خياليّة التّوقّع وواقعية الحَدَث، وذلك بقولِه: (في رِحلةِ الشِّتاءِ والصَّيف)، الذي جاء به لتوشيةِ ما كتبه بحُلَّةٍ إسلاميَّة قَشيبةٍ تتّكئ على إحدى آيات الذِّكر الحكيم، وقد يُفهم منها أنَّها إنَّما سيقت في غِمار رِحلةٍ حقيقيةٍ إلى أرض المَقْصَدِ لأداء فريضة الحجّ .أمّا الرّحلات الخياليّة الذّهنيّة فهي أقرب إلى تلك الرّحلات التي يقوم بها

[80]-مصطفى عطية جمعة - قضايا الخطاب في أدب الرحلات -https://www.adabislami.org- يوم:2015/10/15- دخول يوم : 2020/02/10

المُتَصوِّفة، فيصعدون في أثنائها إلى عالمٍ سماويٍّ ينشدون فيه القُرْبَ والوِصالَ والسَّلام.وأَيًّا ما كانت الرِّحلات التي تُطالعنا في الكتبِ فإنَّها بقايا أرواحٍ نَوَتْ وهَمَّتْ وقامتْ وشاهدتْ ودوَّنتْ ونَقَلت"[81]

4- من تاريخ أدب الرحلة العربي:

الرحلة نوع سردي عربي عريق. قدم فيه العرب تراثا مهما في فترات ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وانحسارها. وليست الرواية، كما تحققت نوعا سرديا في العصر الحديث سوى «رحلة» بحث واستكشاف ليس كما كان يفعل الرحالة قديما، وهو يجوب الفضاءات، ويصف الممالك والمسالك ويعدد المهالك، أو يلتقي الرجال ويأخذ عنهم، "من تاريخ خروجه من موطنه إلى أن يعود إليه. الرواية رحلة استكشاف للواقع والذات والتاريخ والإنسان، بكيفية مختلفة عن الطريقة التي سلكها الرحالة مؤسسا لنوع سردي له خصوصيته ومقاصده. إن الأحداث والأزمنة والأمكنة وطرق السرد التي نجدها في الرواية لا تختلف في مدى تجليها عن نظيرتها في الرحلة، إلا بحسب ما تفرضه قواعد النوع في أي منهما. لقد استوعبت الرواية بعض ثيمات وموضوعات وتقنيات الرحلة، بمعناها التقليدي، ولكنها وظفتها بما يتلاءم مع قواعد الشكل الروائي الحديث والمتطور مع الزمن"[82]، لذلك يمكننا أن نجد الكثير من الروايات تنبني على أساس الرحلة ولكنها تقدم بطريقة مختلفة عن الرحلة بمعناها القديم.

---

[81]--إيناس محروس بويس – ماذا عنك هل بدأت رحلتك أو ليس بعد؟- .https://www.aljazeera.net. الدخول وم 2021/02/10:

[82]--سعيد يقطين – أدب الرحلة العربي الحديث، 19 نوفمبر 2019- /**https://www.alquds.co.uk**. دخول :**2021/01/22**

القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

–"كتب (الأقاليم) و (البلدان الكبير) و (البلدان الصغير) للغوي المؤرخ هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204هـ / 819 م). ومن الواضح أن اهتمامه منصبٌّ على الجغرافيا.

نصوص سليمان التاجر(ت. بعد 237 هـ / 851 م). ولم يُعرَف العنوان الذي وضعه لها، ولذا سُميت فيما بعد برحلة سليمان التاجر.

وهو نص كتبه عن أسفاره التجارية عبر البحار إلى الهند و الصين، يحوي النص وصفا للطرق التجارية، وحديثا عن بعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية في الهند والصين وبعض الجزر التي مرّ بها في الطريق. كما أن النص يحوي قصصا عن عجائب البحر وما يواجهه المسافرون من مشاقّ وأهوال.

القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.رحلة ابن فضلان: لأحمد بن فضلان (ت. حوالي 349هـ / 960م)، طلب ملكُ الصقالبة من الخليفة العباسي المقتدر بالله أنيبعث لهم من يعلمهم الدين الإسلامي ويعرّفهم شرائع الإسلام، ويبني لهم مسجدا وحصنا يتحصّنون فيه من الأعداء، فأرسل الخليفة سنة 309هـ/921م بعثة جعل رئاستها لابن فضلان. فقام بمهمته بشكل جيّدودون رحلته هذه.

القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

–تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبي الريحان؛ محمد بن أحمد البَيْرُوني (ت 440هـ/ 1048م) .(نظام المرجان في المسالك والممالك) لأحمد بن عمر العذري الأندلسي (ت 477هـ /1085م

القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

يكاد هذا القرن ينافس القرن الرابع في حجم الإنجاز الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرحلة، وإذا كان القرن الرابع قد تميز بعدد الرحالة الكبير، فقد تميز القرن السادس بقوة هؤلاء الرحالة وأهمية الآثار التي خلفوها، والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات. ومن أهم آثار هذا القرن:

) –تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) لأبي حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي الأندلسي (ت 565هـ / 1170م

–نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي (560هـ / 1166م) وهو الذي وضع الخرائط لجميع أنحاء العالم المعمور آنذاك، وصمم كرة من الفضة جعلها صورة لكافة تضاريس العالم.

–ترتيب الرحْلة للترغيب في الملّة" لأبي بكر بن العربي الأشبيلي الأندلسي (ت 543هـ / 1148م

وهذه الرحلة لم تصِل إلينا كاملة، فقد فُقدت في زمن المؤلف نفسه، ولكنه كتب ملخصا عنها في مقدمة كتابه: "قانون التأويل"، وقد قام الأستاذ سعيد أعراب بتجْريد هذه الخلاصة، وعمِل على تحقيقها، وألْحقها بدراسة له عن ابن العربي. ويعدّ ابن العربي أول من استخدم لفظ «رحلة» في عنوان مؤلف، وبهذا يمكن اعتباره أول من وضع أساس أدب الرحلات المعتمدة على الصورة الفنية"[83].

5– جماليات أدب الرحلة في السرد العربي القديم:

– الرحلة الحقيقية فلا يعتد بالرحلة الخيالية وقد ترج في أدب لرسائل وغيرها

– التدوين فلا يعتد بالرحلات المروية والمنقولة مشافهة

[83]-- حسن جابر المدري العفيفي- نبدة عن تاريخ الرحلة في الأدب العربي.-- https://faculty.ksu.edu.sa---2022

– المشاهد بعين السارد المعاين الخبير المشارك حيث تعد الرحلة مجموع المغامرات والأحداث التي عايشها السارد صاحب الرحلة

– الوصف الدقيق لكل ماهو متاح للوصف – أقاليم– بلدان– عمارة– ثقافات أجناس– تقاليد – طقوس–

– الصدق والدقة فالرحلة كما تقدم أدبا يمتع فهي تقدم علما يستفاد منه

****

****

الدرس العاشر : جماليات السرد الصوفي

1– مفهوم التصوف والسرد الصوفي:

التصوف، تجربة لها فكر هدفه ابتكار صورة مثالية للإنسان ضمن سياقات معينة، والكتابة الصوفية، تبنت هذا الفكر والهدف، وحملت مضامينه فوسمت به، ولكي نوسم نوعاً أدبياً بمذهب وفكرة، لا بد وأن يكون حاملاً لها، صادراً عنها، فهو (التزام) أدبي، لأن اللغة التي يشترك باستعمالها أبناء جلدة ما، لغة غير موظفة، المادة الخام فيها صالحة ومهيأة لإنتاج أشكال قولية موجهة وموظفة لمنحى فكري دون آخر، وعلى مقدار التوفيق في هذا التوظيف، تكتسب اللغة بعداً غائياً، وليست فقط واسطة لنقل الأفكار، بدليل أنه يمكن نقل الفكرة الواحدة –لغوياً– بكيفيات تعبيرية متعددة تختلف في مستوى بنائها وتأثيرها في متلقيها. ولا تكتسب هذه (اللغة الموظَّفة) هويتها وتصنيفها الأجناسي، إلا إذا توفرت على جملة أركان لا بد أن تتوفر عليها هذه الكتابة، ومنها الكتابة

الصوفية، والأركان هي: (الغرض المتحدث عنه، والمعجم التقني، وكيفية استعماله، والمقصدية، وهذه جميعاً تكون وحدة غير قابلة للتجزئة ، ومتى ما توفرت هذه الأركان الأربعة، أمن أن تكون كتابة ما جنساً أدبياً غير مشوب بغيره. والداعي إلى تسطير هذه الأركان والحاجة إليها، أمر دعت إليه تلك التعددية أو التنوع في المنجز الصوفي النثري، فضلاً عن الشعر.

" فيتضح الغرض الذي من أجله تمت نية القول وتحددت بمعاني التصوف وأهدافه الدينية والعقلية والأخلاقية، وباستخدام معجم اصطلاحي صوفي، يدرك شفرته المعنيون بالتصوف أو المتوجه به إليهم.

ويتم استخدام هذا المعجم بقصد صوفي فقد يشترك في اصطلاحات هذا المعجم أهل الحب العذري مثلاً ولكنهم لا يقصدون إلى المعاني التصوفية، وتتصف مقصدية التصوف بحضور شخصية المتقبل، فالنصوص موجهة إلى جيل المريدين والسالكين تبصرة لهم وتعليماً وإرشاداً.

هذا لا يعني وجود نص نثري أدبي فني خالص بين دفتي مؤلّف، بل قد يندرج النص الأدبي ضمن كتب الطبقات الصوفية والمصنفات العلمية المختلفة في موضوعاتها التي تنحو نحواً موسوعياً مثل (رسائل إخوان الصفاء)، أو أن يكون نصَّاً أدبياً خالصاً مستخدماً لغة رمزية عالية في طرائق أدائها التعبيرية والأسلوبية، مثل (المواقف والمخاطبات) للنفري، وعلى وجه العموم يمكن، إدراج الأشكال النثرية التي يتأطر بها النثر الصوفي الذي تهيمن فيه القيمة الأدبية أكثر من القيمة العلمية، والأشكال هي:

أولاً: مناجيات لله (عز وجل) والتضرع إليه في شكل تراتيل وأدعية وأوراد تقترب كثيراً، لغتها من لغة القرآن الكريم وفيها توخٍ لملامح بلاغية في التعبير.

ثانياً: نصوص الحكمة والإرشاد، تطول أو تقصر، وتتسم بالمعنى الشمولي في لغة خطابية واضحة.

ثالثاً: المقامات والأحوال والمواقف (هذا الضرب من النثر الصوفي قد جاء عند ذي النون المصري على أسلوب الأقصوصة والحكاية، تارةً، وعلى الأسلوب التعليمي، تارةً أخرى."[84].

2- علاقة التصوف بالفنون :

- لقد كانت العلاقة بين الجمال والتصوف والإبداع والفنون بصفة عامة علاقة أصيلة؛ لأن التصوف يرتبط بأصل الجمال كله وهو الحقُّ مبدع الوجود والموجودات؛ فثمة علاقة وثيقة بين التصوف والإبداع والاتصال بمنابع الجمال والجلال والترقي في المعارج الروحية والجمالية والتخييلية، حيث هذا التجاذب الفني والتداخل الصوفي بين الإبداع ومنبع الجمال وأصل الجلال ومصدر الكمال. ومن ثمَّ كانت التجربة الصوفية رحلة روحية معراجية تغوص في عالم الأحوال عابرة لعالم الأقوال، لا تني ولا تقر باحثة عن الحق والحقيقة.

ولقد قدم لنا الموروث الصوفي العربي نصوصًا ومواقف ورؤى وتصورات تصل إلى الحالة القصوى من الجلال والجمال والإبداع. نرى ذلك في الموروث الصوفي شعرًا ونثرًا: في مخاطبات النفري، وفتوحات ابن عربي، وحكم ابن عطاء الله السكندري، والمنقذ من الضلال للغزالي، وكتابات الحارث المحاسبي، وأبي يزيد البسطامي، والجنيد، والحكيم الترمذي، والشبلي، والسراج الطوسي، وأبي طالب المكي، وشعر ابن الفارض، والحلاج، والسهروردي، وغيرهم كثير ممن يندون عن الحصر، حيث الروح الصوفي إدراك ذوقي أصيل، وكدح على

[84]-- ناهضة ستار. بنية السرد في القصص الصوفي . .http://www.syrianstory.com..2022/9/22 تاريخ الدخول - 2022/10/10

مستوى اللغة للترقي في معارج التخييل والتشكيل إلى ما وراء الحروف والكلمات والدلالات.

"تأسيسًا على هذا كله يمكن القول إن النص الصوفي كان نصًا إبداعيًا جسورًا خلاقًا عماده التأويل لا التفسير والتعليل، ظاهره الجمال وباطنه الجلال. إنه نص مشغول بتحطيم التابوهات، ويتميز بالجسارة على الخوض في تأمل المقدسات، والتحرر من القمعيات، والبحث في مسائل الألوهية والكون والوجود والاتحاد والحلول والفيض والعشق والمرأة والخصوبة وترميزات الغزل؛ حيث التنقل الروحي والوجودي من الحسي الدنيوي إلى الرباني الروحي، وما يستتبع ذلك من إبداع النص رموزه الخاصة ومصطلحاته السرية الهائمة في عوالم الظاهر والباطن والأحوال والمقامات والمشاهدات والمكاشفات والشريعة والطريقة والحقيقة والذوق والوجد"[85].

ولعل هذه الجدلية الإنسانية الروحية الربانية في التجربة الصوفية قد حطمت كثيرًا من الحواجز الجمالية والسياسية والاجتماعية في الواقع العربي، سواء في الشعر القديم والمعاصر؛ وذلك على نحو فتح التجربة الإبداعية على أفق السؤال والقلق والاغتراب والمواجهة والثورة والتمرد والخروج. وكل هذه الدلالات التي ابتكرها الروح الصوفي قد أثْرَت الفنون المعاصرة الشعرية والمسرحية والدرامية والتشكيلية على اختلاف مدارسها ومقاصده

3- ابن عربي وتجلياتالكتابة الصوفية:

تأخذ مسألة التجلي التي هي حاصل الإيمان الأقصى، بُعداً محورياً بالغ الأهمية في منظومة ابن عربي العرفانية، فتجلّي الله أمرُ يتحقق في قلب العارف،

[85]--التصوف في الأدب العربي المعاصر.-https://sufirfan.org ..يوم - 2023/02/14

ولكي يشرح ابن عربي نظريته فيما يخصّ "الإله المصطنع من الاعتقادات" يربط التجليات الإلهية وقلب الإنسان العارف ربطاً محكماً، ويقول: "وإذا كان الحق يتنوع تجلِّيه في الصور(الصورة)، فبالضرورة يتّسع القلب ويضيق بحسب الصورة التي يقع فيها التجلِّي الإلهي، فإنه لا يفصل شيء عن صورة ما يقع فيها التجلِّي، فإن القلب من العارف او الانسان الكامل بمنزلة محل فصّ الخاتم من الخاتم، لا يفضل بل يكون على قدره وشكله من الاستدارة، إن كان الفص مستديراً، او من التربيع والتسديس والتثمين وغير ذلك من الأشكال إن كان الفص مربعاً او مسدساً او مثمناً او ما كان من الأشكال، فإن محلّه من الخاتم يكون مثله لا غير (غيره)، وهذا عكس يشار اليه من باب التوهم، من أن الحق يتجلَّى على قدر استعداد العبد، وهذا ليس كذلك، فإن العبد يظهر للحق على قدر الصورة التي يتجلى له فيها الحق. وتحرير هذه المسألة ان لله تجلّيين: تجلّي غيب، وتجلّي شهادة، فمن تجلّي الغيب انه يعطي الاستعداد الذي يكون عليه القلب، وهو التجلِّي الذاتي الذي الغيب حقيقته، وهو الهوية التي يستحقها بقوله عن نفسه: "هو". فلا يزال "هو" له دائما أبداً، فإذا حصل له. أعني للقلب(القلب)– هذا الاستعداد، تجلى (وتنجلى) له التجلّي الشهودي في الشهادة فرآه فظهر بصورة ما تجلّى له كما ذكرناه (ذكرنا). فو تعالى أعطاه الاستعداد بقوله: "أعطى كل شيء خلقه"؛ ثم رفع الحجاب بينه وبين عبده، فرآه في صورة معتقده (معتقد). فهو عين اعتقاده، فلا يشد القلبُ ولا العينُ أبداً إلا صورة معتقده في الحق، فالحق الذي في المعتقد هو الذي وسع القلب صورته، وهو الذي يتجلّى له فيعرفه، فلا ترى العين إلا الحق الاعتقادي، ولا خفاء بتنوع الاعتقادات: فمن قيده أنكره في غير ما قيده به، وأقر به فيما قيده به إذا تجلى، ومن أطلقه عن التقييد لم ينكره وأقرّ به (له) في كل صورة يتحول

فيها، ويعطيه من نفسه قدر صورة ما تجلة له، الى ما لا يتناهى، فأن صور)صورة) التجلي ما لها نهاية تقف عندها، وكذلك العلم بالله (تعالى) ما له غاية في العارف (العارفين) يقف عندها، بل هو العارف في كل زمان يطلب الزيادة من العلم به، "ربِّ زدني علماً""ربِّ زدني علماً""ربِّ زدني علماً". فالأمر لا يتناهى من الطرفين.

لم يكتفِ ابن عربي وهو يشق مسعاه التنظيري لتظهير عقيدة التجلِّي ضمن هذه الحدود التوصيفية، بل ذهب الى ترتيبات منطقية تصنِّف العلوم والمعارف ضمن ثلاث مجموعات :

أولها: العلم العقلي: وهذا النوع من العلوم يراه ابن عربي عرضة للإصابة والخطأ معاً . ورغم ما يتحدث به أحياناً عن البرهان الساطع والدليل القاطع في مجال العلوم النظرية. إلا أنه لا يرى في العلوم العقلية رافعاً للشك والتذبذب، ما لم يقع العقل تحت إشراف القوة القدسية وحمايتها وسلطانها. وهكذا تُحصَّل الحقائق والمعارف عن طريق تعلمها من معلمها الأساس وهو الحق تعالى، لا بالتقليد والإتباع للقوة المفكّرة .في رسالته المعروفة الى الفخر الرازي يقول الشيخ الأكبر: "واعلم إن أهل الأفكار، إذا بلغوا فيه الغاية القصوى، أداهم فكرهم الى حالة المقلد الصميم، فإن الأمر أعظم من أن يفعله الفكر، فما دام الفكر، فمن المحال ان يطمئن العقل ويسكن، وللعقول حد تقف عنده من حيث قوتها في التصريف الفكري، ولها صفة القبول لما يهبه الله تعالى، فإذن: ينبغي للعاقل ان يتعرض لنفحات الجود، ولا يبقى ما هو في قيد نظره وكسبه، فإنه على شبهة في ذلك" . ويذكر ابن عربي في هذا المقطع من كلامه جملة قضايا هامة على نحو الاختصار لكن مع صراحة هي: أ– إن أهل الفكر مقلّدون. ب–لا يمكن للإنسان الوصول الى اليقين باعتماده الفكر وسيلةً

ومنهجاً. ج– إن مجال المعرفة العقلية ذات الأداة الفكرية محدود، ولا يمكن تخطّي هذا المجال الضيّق. د– ان للعقل قدرة على تحرير ذاته من أسر الفكر، ليضع نفسه في مهبّ نسيم الجود، فيتعلم الحقائق من الحق تعالى.

والنتيجة التي يخرج بها ابن عربي من هذا الترتيب، هو تقدم وأولوية المعرفة الحاصلة عن طريق التجلّي والمكاشفة الشهودية للأنبياء والأولياء على تلك الحاصلة بوساطة التفكير والنظر في مجال الإلهيات.

ثانيها: العلم بالأحوال: وهذا العلم – كالعلم العقلي – هو الآخر في مدار الاشتباه والخطأ، إلا أن خطأه من نوعه، واشتباهه من صنفه، تماماً "كمن يغلب على محل طعمه المرَّةُ الصفراء، فيجد العسل مرّاً، وليس كذلك، فإن الذي باشر محل الطعم إنما هو المرة الصفراء . "

ثالثها: علم الأسرار: وهذا النوع من العلوم، ينقسم الى قسمين:

أ–قسم يشبه النوع الاول، يدرك بوساطة العقل، مع فارق وهو ان العالم في ذاك النوع يصل الى مدركاته عن طريق التفكير والنظر، أما هنا، فلا تحصل المدركات نتيجة عملية تفكير ونظر وإنما بإفاضة الروح القدس لها .

ب–القسم الآخر: ينحل بدوره ايضا الى نوعين، أحدهما يرتبط بعلم الاحوال، بيد انه اكثر شرفاً منه، وثانيهما من نوع الأخبار التي للصحة والخطأ سبيل اليها، إلا إذا كان صدق مخبرها وعصمته أمراً ثابتاً مؤكداً، كأخبار الأنبياء والأوصياء.

إن علم الأسرار هو ما يسميه ابن عربي في موضع آخر "العلم الإلهي" ويراه، "أصل العلوم كلها، واليه ترجع" وبناء عليه فـ "العالِم به يعلم العلوم كلّها ويستغرقها، وليس صاحب تلك العلوم)الأخرى) كذلك، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط. "...

– استعصاء الكشف على البيان

حين يبوح العارف الواصل بحال من أحواله فلا ينبغي أن نتوقع منه شرحاً عما هو فيه، أو في ما اختبره في نفسه. وقد تكون هذه واحدة من أظهر سمات الأولياء والعارفين ممن رزقوا العلوم الكشفية وما بان لهم من حقائق الغيب. ولئن كان لكل ولي اختبار معنوي، فهو مخصوص به وليس لغيره منه إلى حظ الإخبار اللفظي، فضلاً عن أنه لا يتكرر للولي على النحو الذي جاءه من قبل.

ولذا فالحادث الروحي الذي مرّ على عين العارف وفؤاده، إن هو إلا إخبار إلهي عن أمر غير منظور حتى للعارف نفسه من قبل أن يؤتى بالخبر. وما ذاك إلا لأن هذا الحادث، وان كان ثمرة سير وسلوك ومجاهدة – فهو إشراق رحماني حل في صدره من لدن الروح القدس. وإذن فإنه بهذه المنزلة عطاء مجاني، وحين يتصرف الولي بهذا العطاء على نحو المكاشفة سيكون شأنه شأن العبد الصالح الذي أوتي علم من الكتاب حيث قال تعالى بلسان ذلك العبد: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}33سورة الكهف.

لقد واجهت فلسفة التصوف معضلة إدراك السبب الذي يجعل الاختبارات الروحية أمراً عصياً على السرد وفقاً لقوانين المنطق .بعضهم يذهب إلى أن الحقيقة القدسية لا تُعقل. ومعنى لا معقوليتها أن الإدراك الإنساني والجهاز المفهومي الذهني عاجز عن عرض هذه الحقيقة وإيضاحها. وبعضهم يرى أن الحادث المعنوي أمر لا عقلاني وغير قابل للتوصيف .ذلك بأن التجربة الروحية تتحصّل بالمباشرة، من دون ان ترتدي لباس المفاهيم .وهذا عائد إلى أن الكلمة تقف في مقابل المفهوم، ومن ثم لا يكون لها معنى إذا ما افتقدت مفهوماً معيناً. وبناء عليه فإذا لم يكن ثمة مفهوم في التجربة، فلا يمكن حينئذٍ تشريح الحقيقة

التي تحتويها تلك التجربة من خلال نظام دلالي لغوي وبمنظومات لفظية كلامية34

ومثلما ظهرت معضلة استعصاء الكشف على البيان في اختبارات التصوف الإسلامي، كذلك ظهرت وتبعاً لخصوصيتها اختبارات التصوف في الأديان التوحيدية الأخرى .

"يعتقد الفيلسوف الإنكليزي والتر ستيس في كتابه: "العرفان والفلسفة" إن السبب الذي يمنع تفسير التجارب العرفانية هو تأبّيها عن المفاهيم. كما ان سبب عجز الفهم البشري عن إدراك هذا النوع من التجارب هو أن القوانين المنطقية الحاكمة على مجال الفهم الإنساني لا استخدام لها في نطاق هذه التجارب. يرى العارف هنا أن في تجربته تناقضاً. أي أنه يشاهد ما ينقض قوانين المنطق، وهو – من ثم – كلما حاول صوغ ما شاهده في لباس من الألفاظ وجد نفسه متورطاً في تناقض مقولي. أي أن العارف يجد نفسه محاطاً بأناس لهم منطقهم العام، فيما هو يأنس لمنطق ذاتي خارج عن مألوفهم .وعندما تصل الكلمات التي يعبر فيها عن أحواله، فإنهم غالباً ما يأخذهم الشك كلماته فيرمونه إذّاك بالشطح والتكذيب. ولهذا فهو يعود حسيراً تائهاً محاولاً تفسير ما حدث بأن المشكلة هي في لسانه ومنطقه القولي وهو لا محالة سوف يعتقد بأن تجربته – وفقاً لذلك – غير قابلة للوصف والبيان، ولو عدنا الى التجلي بمقصوده الناتج عن الإيمان الأقصى كما مرّ معنا في تأصيلات بول تيليتش، لوجدناه يكمن في النقطة التي تختفي فيها كل عينية في لجّة الألوهية الخالصة. وهذا أمرٌ يدركه العرفاء بتعقل خاص يحصِّلونه إثر اختبارات مضنية في رحلة السير والسلوك. ربما لهذا السبب جاز ما فعله جمعٌ من كبار العرفاء والفلاسفة الإلهيين لجهة اعتبار التصوف أمراً عقلانياً بوصفه حصيلة تكامل بين الحس

والحدس والفيض المتأتي من حضور الغيب. لقد كان بعض كبار المتصوفة في أوروبا وآسيا فلاسفة كباراً، وفي الوقت نفسه، مبرزين في وضوحهم وتماسكهم وعقلانيتهم. لكنهم أدركوا أن المحتوى الحقيقي للإيمان في الهم الأقصى لا يمكن أن يتوحد بقطعة من الواقع، كما يشتهي الإيمان التقديسي، كما لا يمكن أن يُعبِّر عنه بألفاظ النظام العقلي. بل هو تجربة نشوة انجذابية. لذا لا يستطيع المرء أن يتحدث عن التجلّي كإيمان أعلى إلا بلغة ترفض في الوقت نفسه إمكانية الحديث عنه. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يعبر بها الإيمان الصوفي عن نفسه. عند هذه النقطة يطرح تيليتش طائفة من الأسئلة: هل يمكن وجود شيء للتعبير إذا كان محتوى الإيمان الصوفي يتعالى عن كل شيء قابل للتعبير؟ ألا يقوم الإيمان على تجربة حضور المقدس؟ كيف تكون مثل هذه التجربة ممكنة إذا كان الأقصى هو ما يتعالى عن كل تجربة ممكنة؟ الجواب الذي تقدمه التجربة الصوفية على نطاق كوني تفيد التالي: يوجد مكان يحضر فيه الأقصى داخل العالم المتناهي، هو تحديداً، أعماق النفس الإنسانية. هذه الأعماق هي نقطة الاتصال بين المتناهي واللامتناهي. ولكي يبلغها الانسان، لا بد له ان يفرّغ ذاته من جميع المحتويات المتناهية في الحياة الاعتيادية، وأن يتخلى عن جميع الهموم الأولية لصالح الهم الاقصى. يجب أن يمضي الى ما وراء أجزاء الواقع التي يجرب فيها الإيمان التقديسي الأقصى. يجب ان يتعالى على انقسام الوجود، بما في ذلك جميع الانقسامات الأكثر عمقاً وكلية، وهو الانقسام بين الذات والموضوع. فالأقصى يتجاوز هذا الانقسام، وعلى من يريد أن يبلغ الأقصى ان يقهر هذا الانقسام في ذاته عن طريق التأمل والتدبر والنشوة الانجذابية. والايمان/ داخل حركة النفس هذه، هو حالة من التقلب بين امتلاك محتوى الهم الأقصى وعدم املاكه. وهو يتحرك في درجات من التقريب، في انتكاسات وتحققات مفاجئة.

ولا يستخف الايمان الصوفي بالإيمان التقديس او يرفضه. بل هو يتخطاه الى ما هو اضر في كل فعل إيمان تقديسي، ولكنه يختفي وراء الأشياء العينية التي يتجسد بها36. كان اللاهوتيون أحياناً يضعون الإيمان مقابل التجربة الصوفية. وهم يقولون إن المسافة بين الإيمان والأقصى لا يمكن أبدا أن تُردم. ويحاول التصوف ان يمزج العقل بمحتوى همه اللاَّمشروط، بأساس الوجود والمعنى. ولكن لم يكن لهذه المقارنة سوى صلاحية محدودة. فالصوفي يعين المسافة اللامتناهية التي تفصل اللامتناهي عن المتناهي، ويقبل حياة المراحل الأولية من الوحدة مع اللامتناهي، التي لا تقاطعها النشوة النهائية إلا نادراً، او لعلها لا تقاطعها أبداً، في هذه الحياة .ولا يمكن للمؤمن ان يظفر بالإيمان إلا إذا استحوذ عليه محتوى همه الأقصى. والتصوف، مثل نزعة التقديس، نمط من الإيمان، وهناك عنصر صوفي، كما هناك عنصر تقديسي."[86]

وقد اشتهر كثير من الصوفية "في العصر العباسي كالسري السقطي، والحسين بن منصور الشهور باسم الحلاج، والحسن بن بشر، وابن العربي، وابن الفارض، والشريف الرضي، ويحي بن معاذ... ومن أصول التصوف عندهم:

- **التوبة**
- **التمسك بكتاب الله تعالى**
- **الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم**
- **اجتناب المآثم..."[87]**

4 – مميّزات الأدب الصوفي القديم:

[86]--محمود حيدر. تجلّي الوجود وجلائه وحدة الاختبار الروحي بين إبن عربي ولاوتسو .http://www.iss-foundation.com -

[87]– لعيدي سليمة. محاضرات مقياس الأدب الصوفي. – مخطوط

- التأثر بالشريعة الإسلامية:
- استعمال الرمزية
- الخضوع لإرادة الله القوية
- الخيال
- السمو الروحي

5- جماليات السرد الصوفي :

1- غلبة المقصدية الدينية التعريف بالتصوف/ الوعظ/ الابتهالات/ معاناة التجلي والوجد..

2- غلبة المصطلحات الصوفية على الخطاب الأدبي

3- كثرة الرموز الصوفية

4- الحاجة لمعرفة المعارف الصوفية لقراءة النص السردي الصوفي

5- تعدد الدلالات في النص الصوفي حسب تعدد المتلقين ومعرفتهم بالتصوفوأسراره

6- اشتمال النص الصوفي على المعنى الباطن والمعنى العام، فالمعنى الباطن خاص بخاصة الخاصة والعام لكل المتلقين.

الدرس الحادي عشر: جماليات السرد في النص الشعري القديم

تقديم :

لا يقتصر السرد على النثر في تراثنا العربي، وإنما يتجاوزه إلى القصيدة الشعرية، وتشير الكثير من الدراسات أن تجليات السمات السردية في النص الشعري العربي القديم، باتت من الشهرة بمكان وأن النص الشعري العربي القديم، يحكي قصة العربي القديم بحله و ترحاله وفي جميع حالاته النفسية من حزن وفرح، أمل ويأس وفي حالاته الاجتماعية من فقر وغنى، وفي حالاته السياسية من فرقة واتحاد، وحرب وأمن، وفي نشاطاته اليومية من رعي وفروسية وصيد سكر وغزل ومجون وتكرم وتفاخر كل ذلك حملته القصيدة، في اطار سردي ممتع ومتماسك.

1- النص الشعري العربي القديم والسرد

النص الشعري العربي القديم لم يكن مجرد نص شعري، بسيط يعتني فيه الشاعر برص كلماته وفق أوزان مخصوصة وقوافي محفوظة للتغني والطرب ليس إلا، وإنما اشتملت على كل عناصر الحياة و حركتها في ذلك الزمن في الزمان والمكان، حتى قيل الشعر ديوان العرب وقيل الشعر علم قوم لا علم لهم غيره فيه أنسابهم وتاريخ أيامهم وعاداتهم وتقاليدهم، " لقد استطاع شعراء العصر الجاهلي أن يسجلوا في أشعارهم الأحداث والشخصيات والزمان والمكان والعقد والحلول مما جعل القصيدة السردية أحد أنماط الشعر العربي القديم "[88]

[88]- نجلاء عبد السلام محمد نصير- سردية القصيدةفي الشعر العربي القديم بين امرئ القيس و الأعشى- مجلة سرديات - ع26 - اكتوبر - نوفمبر- ديسمبر- 2017- ص127

حيث ينتابنا في العادة ونحن في سياق قراءة القصيدة العربية القديمة أننا في سياق قراءة قصة متماسكة مكتملة الأركان من زمن وشخصيات ومكان وحدث، مع وجود حوارات مباشرة وغير مباشرة، مع تسلسل في القصة يشد المتلقي ويرغمه على متابعة القراءة" عند مقاربتنا للنصوص الشعرية القديمة كثيرا ما يحدث لدينا انطباع بأننا نقرأ قصة أو حكاية ..فكيف ؟"[89]

وقد عد إمريء القيس بن حجر الكندي من أكثر الشعراء الجاهليين إجادة للسرد في شعره،لكنه بكل تأكيد ليس هو الوحيد الذيضمن شعره سرد الأحداث وحكي القصص والوقائع.

2- تجلى السرد في المعلقات :

يقول إمريء القيس : في معلقته المشهورة معبرا عن مغامراته في فترة من فترات حياته،مستدعيا رفقته قاصا عليهم مجمل الأحداث التي عايشها وأثرت في حياته فنغصتها أحيانا وأسعدتها أحيانا أخرى.

"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمـأل

وقوفا بها صحبي على مطيهـــم يقولون لا تهلك أسا وتجمـــل

و إن شفائي عبرة مهراقـــة فهل عند رسم دارس من معـول

كدأبك من أم الحويرث قبلها و جارتها أم الرباب بمـأسل

[89]- هشام مشبال - السردي والشعري في القصيدة العربية القديمة - عن النقد المقارن- موقع- -aljabriabed.net-

إذا قامتا تضوع المسك منها نسيم الصبى جاءت بريا القرنفـل

ويوم دخلت الخذر خذر عنيزة قالت لك الويلات إنك مرجـلي

تقول وقد مال الغبيط ننا معا عقرت بعيري يا امريء القيس فانزل

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتـــــلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجـــازا وناء بكلكـل

ألا أيها الليل الطويل انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثـــل

فيا لك من ليل كأن نجومه بأمراس كتـان شـــدت بيـــدبل

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجـرد قيد الأوابد هيكـــل

مكـر مفـر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل"[90].

من الملاحظ أن الشاعر الجاهلي يحكي لنا بشكل سردي، صراع الإنسان الجاهلي مع حياته بما فيها من أنماط و بيئات إلى أن تمتد صيغ الصراع لتشمل كل جوانب الحياة الجاهلية حتى في حوار الإنسان مع الطبيعة و ما قد يكشفه أيضا صراعه مع الصحراء ومحاولة قطعها من خلال الرفاق أو صراعه مع حيوانها ووحشها"[91] وهو بذلك يقيم النسق العام الذي سيحتضن سيرورة السرد، باعتباره نسقا يقوم على التناقض والصراع بين فاعلين أو قضيتين، حيث

[90]--ديوان إمريء القيس بن حجر الكندي- شرح وضبط - عمر فاروق الطباع.- دار الأرقم للطباعة والنشر- بيروت لبنان

[91]--عبد الله التطااوي - أشكال الصراع في القصيدة العربية ج1- العصر الجاهلي - المكتبةالأنجلو سكسونية القاهرة- 2002- ص22

"يشتمل هذا النسق على مجموع الأحداث والشخصيات والزمان والمكان التي تدور فيه الأحداث،فإما يكون تتابعي تتابع فيه الأحداث وفق خطية زمنية من بدايتها إلى نهايتها، أو يكون دائري يبدأ من نهاية الأحداث ليعيد سردها من جديد أو يكون تناوبي يسرد أكثر من قصة ضمن الحكاية الواحدة.."[92]

3- النسق في المعلقة :

نلمح في معلقة إمريء القيس جمالية إقامة النسق من خلال الثنائية التي تتشكل منها فواعل النص،حيث تقف الذات الشاعرة طرفا متوحدا في حين يتشكل العالمالخارجي بكل ما فيه طرفا ثانيا، وتدور الأحداث وفق هذه الثنائية متضمنة ذلك الصراع الحاد بين الذات الشاعرة – ذات– الساردو وبين العالم المحيط به، ليكون الرفاق شاهدين على هذا الصراع وقسوة الأحداث،من خلال استدعائهم في متن النص للمشاركة كمتلقين لهذا الخطاب ومتفاعلين معه دون أنتكون لهم القدرة على تغييره أو المساهمة فيه لأن البطولة هي ملك للسارد فقط.

4 – سيرورة الحدث :

يمتاز الحدث في النص الشعري بالسرد الدائري حيث يعمد السارد إلى سوق الحدث منذ نهايته المتمثلة في الوقوف على الطلل البالي الذي غادره ساكنوه، بما فيهم محبوبة الشاعر – الذات الساردة– (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلم يبق من الحدث إلا الذكرى، و التي ستكون الذات الساردة وسيطا بينها وبين المتلقي لاستعادتها،من خلال ذكر رحيل المحبوبة وأثر ذلك على الذات الساردة:

[92]– النسق اللولبي – دراسة جامعة بابل – httpl//www.uobabylon.edu.iq يوم 2022/02/14

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمـأل

وقوفا بها صحبي على مطيهـــم يقولون لا تهلك أسا وتجمـــل

و إن شفائي عبرة مهراقـــة فهل عند رسم دارس من معـول

ثم التعريج على ذكر المغامرات العاطفية التي عرفها السارد في هذه الديار يوم كانت عامرة بأهلها، خاصة تلك التي تتعلق بمغامرته مع عشيقاته أمثال : أم الحويرث/ أم الرباب و عنيزة وغيرهن.

كدأبك من أم الحويرث قبلها و جارتها أم الرباب بمـأسل

إذا قامتا تضوع المسك منها نسيم الصبى جاءت بريا القرنفـل

ويوم دخلت الخذر خذر عنيزة قالت لك الويلات إنك مرجـلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امريء القيس فانزل

ليستمر الشاعر في سرد مغامراته التي لا تنتهي ومن ذلك تجربته مع سهر الليل الطويل الممل، حتى ترجى ذلك الليل أن ينجلي عنه، بما في ذلك من رمزية لليل.

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتـــلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجـازا وناء بكلكـل

ألا أيها الليل الطويل انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثـل

فيا لك من ليل كأن نجومه بأمراس كتـان شـــدت بيـــدبل

لتبرز الذات الشاعرة بصورة البطل المواجه لتحديات العالم المحيط به، دون كلل ولا ملل، وكل ما فيه عدو له، الوحدة/ غياب المحبوبة/ رحيل الأهل/ مقاساة الهموم..

5- سمات السرد في النص الشعري الجاهلي :

أ- نسق الأنا مقابل العالم فالشاعر يجعل من الأنا ذاتا متفردة تواجه العالم وتحاول التغلب على ما فيه من صعاب.

ب- البطولة الفردية القائمة على تمجيد الذات الساردة

ت- اتباع أنماط متعددة من الأنساق السردية وإن كان النسق البغالب هو النسق النسق الدائري المناسب لاسترجاع الذكريات وإعادة سردها.

"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

صرمت حبالك بعد وصلك زينب والدهر فيه تصرم وتقلب

ث- ذكر الشخصيات والفضاءات الواقعية وتثبيتها على مستوى النص فقد صارت الكثير من الأسماء مألوفة لكثرة ورودها في النص الشعري سردا، مثل فاطم وأم الرباب وهريرة وغيرها

كدأبك من أم الحويرث قبلها و جارتها أم الرباب بمـــأسل

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

ج- ذكر الأمكنة وتثبيتها في النص الشعري سردا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمـــأل

****

****

الدرس الثاني عشر : أثر السرد العربي في آداب الشعوب الإسلامية

تمهيد :

لقد كان للشعوب المجاورة للدولة الإسلامية الناشئة، آثارها الأدبية والحضارية والثقافية المختلفة أشد الاختلاف عن آثار العرب وحضارتهم، ومن ذلك اختلاف اللغة والتصورات الفلسفية والدينية ، ولهم من الاعتزاز بذلك الشيء العظيم، وخاصة الشعب الفارسي، والهنود والروم فقد سبق هؤلاء إلى إرساء تراث أدبي وفلسفي عميق كان بتأثير من الديانات السائدة عند كل شعب، فالفرس كانوا متأثرين بتعاليم زرادشت وماني وفلسفاتهم في الحياة، في حين كان الهنود متأثرين بالبودية والبرهمية وكانت كل آدابهم تصدر عن تأثرهم بهذه التعاليم وهذه الرؤى، فلما جاء الإسلام هذه الربوع انقلب الأمر وتأثرت هذه الشعوب بما في الآداب العربية وعملت على تقليدها، كما عملت على تعريبها حتى تستطيع إدماجها ضمن السياق العام للحضارة العربية الإسلامية.

1- عوامل التأثر:

- تحول الثقافة العربية الإسلامية إلى ثقافة مهيمنة ودخول الفرس تحت سلطة الدولة العربية الإسلامية مما حتم عليهم الانصياع لثقافة الدولة، لضمان الحد الأدنى للتواصل الثقافي والحضاري."[93]للأدب العربي أثر عالمي وليس فقط أوروبي، فاللغة العربية أثّرت على إيران وما زالت تكتب بالحرف العربي حتى يومنا هذا كما أثرت على تركيا وبقيت تكتب بالحرف العربي حتى سنة 1926

[93]---أميرة عبد العزيز تأثير الأدب العربي في الأدب الغربي.https://www.al-binaa.com..03 أوت 2020، تاريخ الدخول 2022/10/10

وكذلك طاجكستان وجمهوريات أواسط آسيا التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي تكتب بالحرف العربي، وقياساً على ذلك كان للغة العربية تأثيرها على كثير من اللغات، ومنها اللغة الفرنسية وذلك من خلال الفتوحات الإسلامية والبعثات العلمية، فقد كادت اللغة العربية أن تصبح لغة العلم والطب والفلسفة في أوروبا، ويعزّى ذلك إلى الازدهار الذي شهدته الأندلس في شتى ميادين العلوم والآداب، فكان الطلبة الأوروبيون يتّجهون للأندلس لطلب العلم وتعلّم اللغة العربية التي كانت حينها لغة العلم والتواصل الفكري والحضاري"

– انتشار التعليم العربي في الحواضر الفارسية بعد الفتح

– الرغبة في الحصول على الحضوة عند الحكام من خلال الثقافة الواسعة

– التقارب الواضح بين الثقافتين العربية والفارسية خاصة في الجانب التقاليد والعادات والكثير منالقيمالاجتماعية

– الانبهار بالبلاغة العربية وخاصة بلاغة القرآن الكريم .

2– الفرس وتأثرهم بآداب العرب :

الفرس من أكثر الشعوب الإسلامية تأثرا بآداب اللغة العربية،ذلك أن الفرس حين دخلوا الإسلام أرادوا نقل حضارتهم وإدماجها ضمن سياق الحضارة العربية الإسلامية وكانت وسيلتهم في ذلك:

1– تعلم اللغة العربية فم اللغة قد برع الفرس في تعلم اللغةالعربية واتخذوها لغة إبداع

2– ترجمة تراثهم إلى اللغة العربية مثل ما فعل ابن المقفع

3- النبوغ في التقعيد للعلوم العربية مثل النحو والفقه والكتابةالشعرية والنثرية مثل ما نجد عند سبويه صاحب كتاب النحو العربي

4- التغني بميراث الفرس الحضاري لكن بلغة عربية وبشعر عربي مثل قول شاعرهم في رثاء إيوان كسرى :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدى كل جبس

وتماسكت حين زعزعني الدهر ابتغاء من لتعسي و نكسي

حضرت رحلي الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي

أتسلى عن الحضوض و أسي لمحل من آل ساسان درس

5- تبني المضمون العربي الإسلامي في الثقافة والإبداع الفارسي، رغم رفض الحركة الشعوبية الاعتراف بالثقافة العربية.

****

****

الدرس الثالث عشر : تأثير الأدب العربي في الأدب الغربي 1

لقد كان للأدب العربي إشعاعه الخاص على الشرق والغرب، قديما وحديثا وذلك عبر بوابتين رئيسيتين هما: الترجمة والنقل عن الآداب العربية، خاصة زمن ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، والاحتكاك المباشر مع العرب خاصة في بلاد الأندلس حيث كانت حاضرة العلوم في زمن مضى." للأدب العربي أثر عالمي وليس فقط أوروبي، فاللغة العربية أثّرت على إيران وما زالت تكتب بالحرف العربي حتى يومنا هذا كما أثرت على تركيا وبقيت تكتب بالحرف العربي حتى سنة 1926وكذلك طاجكستان وجمهوريات أواسط آسيا التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي تكتب بالحرف العربي، وقياساً على ذلك كان للغة العربية تأثيرها على كثير من اللغات، ومنها اللغة الفرنسية وذلك من خلال الفتوحات الإسلامية والبعثات العلمية، فقد كادت اللغة العربية أن تصبح لغة العلم والطب والفلسفة في أوروبا، ويعزّى ذلك إلى الازدهار الذي شهدته الأندلس في شتى ميادين العلوم والآداب، فكان الطلبة الأوروبيون يتّجهون للأندلس لطلب العلم وتعلّم اللغة العربية التي كانت حينها لغة العلم والتواصل الفكري والحضاري"[94]

حيث تشير الكثير من الشواهد على تأثر اللغات الغربية بلغة القرآن الكريم وأخذها منها "هناك الكثير منالشواهدعلىتأثيراللغةالعربيةفياللغةالفرنسية،منهاماذكرتهالباحثةالفرنسية »هنريتوالتر «Henriette Walterفيكتابها »كلمات فرنسيّة أتت من الخارج «عن وجود أكثر من (500)كلمة فرنسية ذات أصل عربي،كما تطرّق

[94]--أميرة عبد العزيز تأثير الأدب العربي في الأدب الغربي.https://www.al-binaa.com .. 03 أوت 2020، تاريخ الدخول 2022/10/10

الكاتب الفرنسي »بييرجيرو «Pierre Noel Giraudإلى تأثيراللغة العربيةفي اللغة الفرنسية وقدّم قائمة بأكث من 300كلمةدخلتمنالعربية للفرنسية

فيعصورمختلفةمنالتاريخمثلشراب،زرافة،خليفة،قميص،كيمياء،وللعلمفإنالعديدمنا لألفاظالدينيةالمستعملةباللغةالفرنسيةهيمنأصلعربيوتلفظكماهيمثل :مسجد – إمام –مؤذن –منارة –عيد.

إذن، إذا كانت اللغة العربية لفظياً قد اجتاحت العديد من اللغات ومن بينها اللغة الفرنسية، لم لا يكون الشأن نفسه بالنسبة للأدب العربي منها "[95]

1– مركز العبور وبداية التأثر:

تاريخياً،عندماانتقلتالحضارةالعربيةإلىبلادالأندلستأثربهاالأوروبيونوكانتالانطلاقةمنجن وبفرنسا.وباطّلاعهمعلىالشعرالعربيمالوا إلىالشعرالعاطفيفبرزتالقصةالشعريةالعاطفية كنوعأدبيمستحدث،يقولالكاتبالفرنسيجوستافكوهين :

»إنالنهضةالقصصيةانبثقتمنروحالشعرالغنائيالعاطفيالذيشاعفيفرنساوقتذاكبأثرمنال شعرالعربيفيالأندلس.«

هذهالحقبةلهاأثربالغعلىالأدبالأوروبيبأكملهفخلالهاأصبحالأدبالعربيمعروفاًفيأوروبا، شكلخاصمنخلالالشعرالعربيعلىالرغممنأنفهمهكانصعباًعلىالقارئالغربيالعاديحيثوص فهاالمستعربالفرنسيآربلانشيربأنه

»بستانسري«،يتطلّبالولوجإليهمعرفةعميقةباللغةالعربيةوثقافتها.

[95]- م.ن

وبحلولالقرنالرابععشرالميلادي، كانتأعظمقوتينهماالمماليكفيمصروسوريةوالعثمانيونف يالأناضولوالبلقانونظراًللاحتكاكوالتداخلمعأوروبافقدامتدتالأعمالالمعرفيةالمكتوبةبا للغةالعربيةإلىانجلترافيالقرونالوسطوبعدهاإلىالثقافاتواللغاتالأوروبيةالأخرى،وخاصة منطقةحوضالبحرالأبيضالمتوسطمثلاالإسبانيةوالإيطاليةوالفرنسية،وهناكظهراهتمام كبيربالأدبالعربي.

وقدترجمتقبلذلكبكثيرإلىاللغتينالإسبانيةواللاتينيةمجموعةمنأقوالفلاسفةالشرقالأدنو بلادالإغريق »هيرمسوهوميروسوأفلاطونوأرسطو ..إلخ«،والتيجمعهافيعام 1053الحكيمالمصريأبوالوفاءالمبشّربنفاتك، كماترجمت »رسالةالغفران « للمعريومؤلفاتإبنسيناوإبنرشد.

كماتمّتترجمةالعديدمنالحكاياتوأهمها » كليلةودمنة « التيترجمهاللفرنسيةأنطونيوديل،قدتقولونإنهذهالقصصتعودلأصولهندية،فليكنلكنلو لاترجمةابنالمقفّعلهذهالمجموعةباللغةالعربيةماكانتوصلتإلىالأدبالفرنسيوعليهفأثرالأدبا لعربيوالترجماتالعربيةعلىالأدبالفرنسيجليلانستطيعإنكاره .

وقدزادهذاالتأثيرفيمنتصفالقرنالتاسععشرمعتكوينصورةللحياةالشرقيّةمنخلالترجمة »ألفليلةوليلة «التيتعدمنأهمالأعمالالتيأحدثتصدىفيالوسطالفرنسيتحديداً.

ولدينامراجععديدةفيهذاالصددمنها:ألفليلةوليلةألهمتالأدبالفرنسي « لحلميالتميمو«مكانةألفليلةوليلةفيالأدبالفرنسي « لياسمينفيدوح،وبحوثومقالاتأخرى،وبالتأكيدلننغفلتأثيرألفليلةوليلةعلىأدبفولتيرالقص صيحيثاقربنفسهأنهلميبدأفيكتابةالقصةإلابعدأنقرأألفليلةوليلةأربععشرةمرة."[96]

[96]- م.ن

2- تجليات التأثير العربي :

وقد يشك في أن الشعر الأوروبي قد تأثر قليلًا أو كثيرًا بالشعر العربي، ولكن الأمر الذي لا شك فيه هو أن نثر القرون الوسطى في أوروبا يرجع في كثير من أصوله إلى النثر العربي، فقد كان الأدب التقليدي في القرون الوسطى أدبًا صارمًا جامدًا، يخاطب الخاصة ولا ينزل لأفهام العامة، ومن هنا كانت الحاجة العامة إلى ذلك الضرب من الأدب الخيالي الذي يعنى بإشباع الحواس أكثر مما يعنى بالمنطق والعقل، فلما نقلت إلى أوروبا بعض «الحكايات» ذات المغزى، وبعض القصص الخرافية كقصة السندباد البحري وما إليها، وجد فيها الشعب حاجته المنشودة، وأقبل عليها إقبالًا شديدًا، فأصبحت بمثابة الخميرة للأدب «الخيالي» الجديد الذي أخذ ينازع الأدب التقليدي القديم مكانه، ومن ثم ذاعت القصص الخيالية الرومانتية ذيوعًا عظيمًا، ولو فحصنا عن هذه القصص، لوجدنا أن كثيرًا منها يرجع إلى أصل عربي بحت، وهناك قصة فرنسية يسمى بطلها «القاسم» وهو اسم عربي لا شك فيه.

يتضح من هذا أن التيارات الشعبية في الأدب الأوروبي في القرون الوسطى كانت أقرب إلى روح الأدب الشرقي منها إلى الأدبين اللاتيني والإغريقى اللذين كانا بطبيعتهما أميل إلى الأرستقراطية، ذلك أن الأدب الشرقي في جملته ينزع إلى الخيال والألوان الزاهية الجذابة، فكانت أوروبا كلما احتكت بالشرق استلهمت روحه، وتأثرت بأدبه أشد تأثر، فتأصل الأدب الخيالي الجديد في أوروبا وترعرع حتى كاد يزحزح الأدب التقليدي من مكانه.

حدث هذا في القرون الوسطى، فلما بدأت النهضة العلمية، نزعت أوروبا إلى درس الحضارة الإغريقية، فأهملت الشرق، وأصبحت مقاييس الأدب الإغريقي

القديم هي السائدة في أوروبا في عصر النهضة، ومن ثم تغلبت النزعة التقليدية القديمة في الأدب على النزعة الخيالية الجديدة بعض الزمن غير أن النزعة الخيالية الجديدة، وهي نزعة شعبية خالصة، لم تخمد تمامًا، ولكنها كانت تحاول الظهور من حين إلى آخر، وهذه القصة الرومانتية الفرنسية، والفولكلور الألمانية، والدراما الإنجليزية، التي فشت في القرن السابع عشر، كانت من آثار النزعة الخيالية التي بدأت في القرون الوسطى، والتي حاولت النهضة العلمية أن تقتلها فلم تفلح، ثم كان القرن الثامن عشر، فتم النصر للأدب الخيالي.

وقد كانت قصص ألف ليلة — التى ترجمت سنة ١٧٠٤— أقوى عامل على هذا النصر، فقد أقبلت الجماهير على قراءتها في شغف شديد وراح الكتاب يقلدونها في قصصهم.

ويرجع نجاح كتاب ألف ليلة إلى حالة الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر، فإن انتشار القراءة قد أنشأ جمهورًا جديدًا من القراء لم يكن الكتاب يحسبون له حسابًا من قبل، وهذا الجمهور الجديد كانت له مطالب وحاجات جديدة؛ فأخذ الكتاب يحاولون أرضاءه واشباع حاجاته.

ولكنهم كانوا في حيرة شديدة، يتحسسون طريقهم إلى معرفة حاجات الجمهور فلا يكادون يصلون إليها، فلما ظهرت قصص ألف ليلة، ورأى الكتاب إقبال الجمهور الغربي عليها ذلك الإقبال الشديد، تنبهوا لهذه الظاهرة الجديدة وأخذوا يدرسونها لعلهم يقفون على السر في شغف الجمهور الأوروبي بذلك الأثر الشرقي الطارئ، فتبين لهم بعد طول التمحيص أن قصص ألف ليلة وليلة، وإن تنقصها مقومات العمل الفني الكامل، إلا إنها تنفرد بخاصة من أهم الخواص التي تحبب الجماهير في القصص، هي روح المجازفة والاقتحام، فعمل

الكتاب على إدخال هذا العنصر الجديد في قصصهم، ومن هنا كانت قصة روبنسن كروزو، وأسفار جوليفر، وما إليها من القصص التي ما كانت تظهر لولا قصص ألف ليلة.

أما في القرن التاسع عشر فقد تأثر الأدب الألماني إلى حد كبير بالآداب العربية والفارسية والهندية، وكان «جوته» يستلهم روح الشرق في كثير من قصصه التي مزجها بالخيال الشرقي، و«هيني» الذي لم يسلم الأدب الشرقي من سخريته اللاذعة، لم تخل قصائده الغنائية من روح الشرق.

"وقد كان «شوبنهور» يتوقع اشتداد النزعة نحو الأدب الشرقي، وامتدادها من ألمانيا إلى فرنسا وإنجلترا، ولكن حدث ما لم يكن في حسبانه، فقد وقفت الآداب الفرنسية والإنجليزية في وجه تلك الحركة، فقضت عليها، ذلك أن العقل الغربي تحول فجأة عن الشرق، فقد انصرف عنه إلى فلاسفته الجدد، وما ظهر وقتئذ من أفكار سياسية جديدة، ومخترعات جديدة، وتطور صناعي سريع، فلم يكن في حالة تسمح له بالالتفات نحو الشرق فضلًا عن الانكباب على دراسته.

وقد كان «جوته» يحلم بجعل الأدب الألماني أدبًا إنسانيًّا عالميًّا، فتحطم هذا الحلم الجميل بظهور الحركات القومية واشتداد النعرة الوطنية، ومع ذلك لا يمكننا تجاهل مكان الأدب الشرقي من الآداب الغربية في جميع العصور.

وقد يظهر لنا لأول وهلة أنه مكان ضيئل، ولكننا إذا لاحظنا أن الأدب الشرقي لم يكن إلا بمثابة الخميرة للنزعات الأدبية الجديدة في أوروبا، أدركنا مبلغ ما كان له من أثر في تكييف الأدب الغربي وتوجيهه، ويكفي أن نقول إن

الشرق كان كلما اتصل بالغرب عمل على تحرير الخيال الغربي من القيود، وتخليصه من كابوس الأدب التقليدي القديم.

فأثر الأدب الغربي في الغرب ليس أثرًا عاديًّا ملموسًا يمكن إدراكه في سهولة ويسر، وإنما هو أثر معنوي، إن صح هذا التعبير؛ لأنه في حقيقة الأمر لم ينقل إلى الغرب نماذج أو أساليب أدبية معينة، وإنما نقل إليه روح الشرق، فكان أثره في بواعث الأدب وغاياته أكثر مما كان في أساليبه وأشكاله الظاهرة، ثم يجب أن نذكر أن الغرب لم يأخذ عن الشرق نزعات أدبية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل، فإن البذور كانت موجودة في الغرب، ولكنها كانت في حاجة إلى حافز يحفزها حتى تنمو وتترعرع، فكان الروح الخيالي الشرقي هو الحافز المنشود، ومن هنا يصعب على الباحث أن يميز بين عناصر الأدب العربي التي طرأت على الأدب الغربي في مختلف العصور؛ لأن تلك العناصر قد اندمجت في الآداب الغربية اندماجًا تامًّا، وطغت عليها الألوان المحلية فغمرتها."[97]

3- نماذج من تأثر الغرب بأدب العرب:

بحسب العديد من النقاد والباحثين فإن "دانتى" تأثر فى كتابته للكوميديا الإلهية بكتاب "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعرى، خاصة فى الخيال القرآنى، الذى كان أول من تحدث بتمثيلات مدهشة عن عوالم الجنة والنار، إضافة إلى الأدبيات الفقهية الروائية التى استقت منه واستفاضت فى تفسيره.

"ووفقا لكتاب "مقاربة بين رسالة الغفران للمعرى والكوميديا الإلهية لدانتي"يبين عمر فروخ رأيه فى مسألة العلاقة بين دانتى والمصادر العربية، فيتأرجح بين

[97]-- أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية. .https://www.hindawi.org . تاريخ الدخول 2022/11/21

موقفين أولهما: أن دانتى متأثر برسالة الغفران، وثانيهما تأثره بقصة المعراج بأسلوب تميز بالطابع الإنشائى، ثم يقول: "يقترب دانتى من لزوميات المعري، ولكنه اهتم بكتابه المشهور رسالة الغفران، وبنى عليه ملحمته المشهورة (الكوميديا الإلهية."(وذلك من دون أن يثبت الصلة التاريخية بين المعرى ودانتي، ثم يقول فى موضع آخر: "رسالة الغفران تنتزع من دانتى فضل السّبق إلى موضوعه."

وأمّا جلال مظهر فى كتابه (مآثر العرب على الحضارة الأوروبيّة) ومحمّد غنيمى هلال فى كتابه (الأدب المقارن) فقد ذهبا إلى ما ذهب إليه بلاثيوس من تأثّر دانتى بالمصادر العربيّة الإسلامية، وفى ذلك يقول محمّد غنيمى هلال" :تأثّر دانته فى الكوميديا الإلهيّة بمصادر عربيّة[98]"

أما لويس عوض فهو يطرح فى كتابه (على هامش الغفران) السّؤال التّالي: "هل اعتمد دانتى فى الكوميديا الإلهية على ما تعلّمه من قصّة المعراج وحدها، أو أنه كان على علم أيضا برسالة الغفران" وهو مقتنع تماما بأنّ دانتى قد تأثّر بقصّة المعراج أولا، ثم يرجح أن رسالة الغفران للمعرى كانت فى متناول يدى دانتي، وقد قرأها عن ترجمة لاتينية ضائعة، ويعزو ترجيحه هذا إلى "أن أوجه الشبه بينها وبين الكوميديا الإلهية أوضح ما يمكن أن يُنسب إلى محض الصّدفة أو توارد الخواطر بين الشعراء[99]."

****

****

[98]-- ينظر في هذا السياق - محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن

[99]--محمد عبد الرحمن. .https://www.youm7.comهل تأثر دانتى أليجييرى فى "الكوميديا الإلهية" بـ"رسالة الغفران" للمعرى؟ يوم 2022/10/20

..

الدرس الرابع عشر : تأثير الأدبالعربي على الأدب الغربي2

– التأثير على مستوى الأجناس الأدبية :

أولا على مستوى الشعر:

أثَّرت الآداب الإسلامية في الآداب الأوروبية شكلاً ومضمونًا، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويُمكن أن نَجتزئ مثالَين في مجال الشِّعرِ يوضِّحان وجهةَ النظر هذه:

أما أولهما :فهو أثر"المِعراج الإسلامي"وما يتَّصل به من قصص أدبي إسلامي في القصص الديني الأوروبي، كما تُمثِّله قصيدة "الكوميديا الإلهية" لدانتي اليجيري الإيطالي، التي كتبها في القرن الثامن الهجريّ) الرابع عشرَ الميلاديّ.(ومنذ أن كتب دانتي هذه القصيدة، وهي تَلفِتُ نظر المُفكِّرين الأوروبيِّين، وتَستحوِذ على إعجابهم؛ لما قدَّمتْه من تصور للحياة الأخرى بشقائها ونعيمِها؛ بحيث أسهمَ هذا التصوُّر في ثقافة الناس في أوروبا بالنسبة لما بعد الموت حتى مطالعِ القرن الحالي، وربما كان ذلك لجَهلِهم بالأدب الإسلامي، أو تجاهُلهم له .

إلى أن أعلن المُستشرِق الإسباني آسين بلاثيوس سنة 1919م، أن دانتي مُتأثِّر بالمعراج الإسلامي تأثُّرًا كبيرًا، يَكشِف عنه التماثل في دقة التفاصيل بين الكوميديا الإلهية والمعراج الإسلامي، تماثلاً لا يُمكن ردُّه إلا إلى تأثر دانتي العظيم، واستفادته الكبيرة من "المعراج الإسلامي" وما يتَّصل به من قصص إسلامي ديني، كما ورَد عند ابن مسرة وتلميذه ابن عربي الأندلسي في "الفتوحات المكية"، وفي "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري وتعليقاتهم عليها.هذا وقد ترجم كتاب بلاثيوس"الإسلام والكوميديا الإلهية"ملخصًا إلى الإنجليزيَّة سنة 1926م.والتشابُه الذي تتبعه بلاثيوس يقطَع كل شكٍّ حول اتصال دانتي بقصص "المعراج الإسلامي" والقصص الديني المتَّصل بالجنة والنار،

ويؤكِّد أن هذا القصص كان المادة التي اعتمَد عليها دانتي اليجيري في قصيدته " الكوميديا الإلهية."ذلك أن تفاصيلَ قصيدة دانتي في"الجحيم والمطهر والفردوس"هي التفاصيل نفسها التي تُوجَد عند ابن عربي المتصوف الأندلسي في"الفتوحات المكيَّة"، أو عند أبي العلاء المعرّي في رسالة الغُفران، وعند غيرهما من المسلمين؛ ممَّن تناولوا هذا القصص الديني الذي يتعلق بالأخرويات.

بل إن النظام الهندسي والأخلاقي للجنة والنار، وتَصميمهما مُتطابق تمامًا مع ما ورَد بشأن ذلك في "المِعراج الإسلامي"، وما يتصل به من قصص أدبي ديني للمسلمين.

والمعاني الأخلاقية والرموز الفنية مُتماثِلة، من حيث إن هذه الرحلة رمز لحياة الإنسان الأخلاقية، وإن المنازل النورانية التي توجَد في الجنة، لا يَبلغها الإنسان إلا عن طريق العناية الإلهية، وهو ما أشار إليه الصوفيون المسلمون قبل دانتي.هذا بالإضافة إلى أن المُتتبّع للجزئيات الدقيقة سوف يلمَس هذا التماثُل أو التقارب من حيث مُهمَّة الدليل، ودركات العذاب في النار ووصف الشيطان ومنازل الجنة، والحُوريات، والصراط، والأعراف، ودخول الأبرار الجنة، والشجرة الواردة في القرآن، والشخصيات الثانوية الأخرى التي تُوجَد في القصص الديني الإسلامي، وكوميديا دانتي، بل إن هناك من يرى تماثُلَ الغُموضِ الأسلوبي في قصة عروج ابن عربي وقصيدة دانتي.

ولم تكن المُجتَمعات الأوروبية – وخاصة الإيطالي – لتقبَل مثل هذا الرأي في شاعرها الكبير دانتي، مِن ثَمَّ فقد انبرَوا للرد عليه، لكن آسين بلاثيوس جمع كل هذه الاعتراضات، وقام بالردِّ عليها، وقد ألحقَ هذا الردَّ بالطبعة الثانية من دراسته"الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية"يتلوها تاريخ ونقْد

المُساجلات، وذلك في عام 1943م، ومن أهمِّ الحُجَج التي فنَّدها ادعاؤهم أن ما في الكوميديا الإلهية من أمور تتعلق بالأخرويات، مصدرها الفكر النصراني الأوروبي، لكن بلاثيوس بيَّن:

أولاً :تطور وتحوير ومخالفة تصور دانتي للأخرويَّات في الكوميديا الإلهية، عما ورد في الفكر الديني النصراني والقصص الديني النصراني، متصلاً بهذه النقطة

ثانيًا :تأثُّر قصص العروج النصراني وغيره من العروجات الأخرى، والقصص الديني النصراني بالتصورات الإسلامية للأُخرويات كما جاءت في"المِعراج الإسلامي"والقصص الديني المُتعلِّق به، الذي كان منتشرًا وذائعًا في بيئة دانتي، وقبيل ميلاده، وهذا كان أقرب ما يكون إلى الغرضِ منه إلى الدليل، برغم دقة وعمق بحث بلاثيوس في المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية؛ حيث إن بلاثيوس قد اعتمد في هذا الفرض على أن اتِّصالَ دانتي بالمعراج الإسلامي كان عن طريق"برونتو لاتيني"أستاذ دانتي وصديقه، الذي كان سفيرًا لبلاده في بلاط الملك ألفونس الحكيم في نهاية القرن السابع الهجري) الثالث عشر الميلادي (حيث عاش دانتي، إلى أن جاء الدليل القويُّ على صحة ما توصَّل إليه بلاثيوس، فيما نشره"انريكو اتشرو لي "Enrico Ceruillالإيطالي سنة 1949م؛ حيث نشَر الترجمتَين اللاتينية والفرنسية لكتاب عربيٍّ في"المعراج"كان قد ترجم من العربية إلى اللغة الإسبانية القشتالية، وقد تمَّت الترجمات الثلاث سنة 1264م في عهد ألفونس الحكيم في القرن السابع الهِجري) الثالث عشر الميلادي(؛ أي قبيل ميلاد دانتي (ولد سنة 1265 – وتوفي سنة 1321م.(كلَّما ازدهرت الدراسات المقارنة، كشفت عن مزيد مِن تأثير آدابنا

الإسلامية في آداب الغرب، الذي وجد في تراث الإسلام ما مكَّنه من وضع أسس نهضته في مختلف الجوانب، ومنها الآداب.

وقد زاد اتشرولي الأمر تأكيدًا بإضافته إلى الترجمتين السابقتين اللتين وضعتا في صفحتَين متقابلتين، كثيرًا من الشواهد، بعضُها يدلُّ على معرفة وانتشار"كتاب المعراج"في الآداب الأوروبية، حتى القرن التاسع الهجري) الخامس عشر الميلادي(، وبعضها نصوص تتضمَّن معلومات عن الأخرويات الإسلامية، في كتب المؤلِّفين الأوروبيِّين، من القرن الثالث حتى القرن الثامن الهجريين – أي: من القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلاديين – وهي تتَّصل بالجنة والنار، بذلك يجد الباحث المادة العلمية التي تُمكِّنه من المقارنة، والوصول إلى أن كتاب "المعراج الإسلامي"وما يتعلق به من أخرويات، كان مُنتشِرًا بعدة لغات في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، خلال القرنَين السابع والثامن الهجريين، وهي الفترة التي عاش فيها دانتي.

يُضاف إلى ما سبَقَ ما قدّمه"خ منيوث سندينو"الذي نشر – في السنَةِ نفسِها التي أعلن فيها أتشرولي أدلته **1949**م – الترجمات الثلاث"للمِعراج الإسلامي"الإسبانية واللاتينية والفرنسية، التي تمَّت في عهد ألفونس الحكيم، وبأمر منه ليُذيع انتشار هذه القصة، وذلك في القرن السابع الهجري سنة **1264**موهكذا يتَّضح في جلاء تأثُّر دانتي الشاعر الإيطالي الكبير بالمصادر الإسلامية في قصيدته المشهورة"الكوميديا الإلهية"، سواء أكان هذا التأثُّر بقصة"المِعراج الإسلامي"أو ما يتعلَّق بها من قصص ديني وشروح وتفسيرات للمُفسِّرين المسلمين.

أما الأنموذج الثاني الذي يوضِّح أثر الآداب الإسلامية في الشعر الأوروبي، شكلاً ومَضمونًا، فهو:شعر التروبادور:

وقد كان شائعًا في مُقاطعة"بروفانس"بجنوبي فرنسا؛ حيث إن معنوياته وأخلاقه وما به من ضروب الشهامَة والفروسيَّة، وحسنِ الذَّوقِ، وجَميل التصرُّف، لم تكن بحال من الأحوال لتنسب إلا إلى تأثير الآداب العربية الإسلامية، التي سادت المُجتمع العربي الإسلامي في الأندلس؛ لأن المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت كانت ذات تقاليد مختلفة تمامًا، عن تلك الأعراف والتقاليد العربية الإسلامية، فهذه الأخيرة كانت تحضُّ على الحفاظ على الأخلاق، وصَون المرأة، وصيانة العِرض، حتى لقد شاعت في شعر التروبادور فكرة الحب العفيفِ المُفضي إلى الموت، وهي فكرة عربية إسلامية شاعت بين الشعراء العرب العاطفيِّين، وهو التصور الذي أسماه بلاثيوس التصور الرومانتيكي والمثالي للمرأة، ويتميز بالحبِّ المُفرط في الروحانية، ولم يكن يجد ذلك العاشق مثَله الأعلى في الفتاة، وإنما كان يجده في الزوجة الشرعية، التي كان لتقديرها وخِدماتها سلطان أخلاقي أثَّر في حياة الشاعر، فجعلها حياة غنية ونبيلة وطاهرة، وهي أمور لم تَعرفها أوروبا في العصور الوسطى، التي انتهكت فيها المرأة وحطَّ مِن قَدرِها.

ومن حيث الشكل، فإن تقاليد جانب كبير مِن شعر التروبادور كانت تُناظر تقاليد الشعر العربي الإسلامي في مجتمع الأندلس، لا سيَّما من حيث القافية، والوزن العربي الذي سارت عليه الموشَّحات، وها هو ذا"جوستاف فون جرنباوم"يقول:والحق أن الشِّعرَ البروفانسي يكاد يكون شرقيًّا عربيًّا من جميع الوجوه، خاصة من حيث الشكلُ والموضوع، مع ملاحظة أن الطرُز الأصيلة

لجميع أنواع الأناشيد التي ألَّفها التروبادور كانت موجودة في شعر العرب الأندلسيِّين وشعر آبائهم .

هكذا يتأكد التشابه بين الزجل الأندلسي، وبين شِعر التروبادور من حيث الأوزان والقوافي التي لم تُلتزَم قبل ذلك في الشعر الأندلسي والإسباني، بل يذهب بعض المُفكِّرين إلى أن القافية عمومًا في الشِّعر الأوروبي، إنما هي أثر من آثار الشِّعر العربي الإسلامي، هذا فضلاً عن الروح الإسلامية التي تمثَّلت في العفَّة والتصوُّن، والحِفاظ على المرأة، وسموِّ علاقة الرجل بها.

ولقد بلَغ الأمر أن بعض الباحثين يَميلُ إلى أن كلمة "تروبادور" عربيةً، أصلها)دور طرب (ثم حُرِّفت.وإذا كان بعض المستشرقين ينحو إلى التقليل من قيمة هذا الأثر للآداب الإسلامية في الآداب الأوروبية؛ اعتمادًا على أن شِعر التروبادور كان شعرًا شعبيًّا، فإن هذا الزعم يتهاوى إذا ما عرفنا أن هذا الأثر شملَ الآداب الشعبية وغيرها، وذلك بالنظر إلى أثر الآداب الإسلامية في الأنموذجين اللذَين أوردناهما في هذه الدراسة، وهما: الأثر الإسلامي في"الكوميديا الإلهية"وشعر"التروبادور"، علمًا بأن أثرهما في مجال فكر الشعوب وحياتها النفسية والاجتماعية كان عظيمًا جدًّا.وفي هذا المجالِ نُشير إلى ما كان للشِّعر الفارسي، خاصة سَعدي وحافظ الشيرازيَين، مِن أثرٍ في"جوته"الألماني في ديوان الشرق والغرب، وكذلك الشاعر الألماني الآخر"بلاتن"في مجموعته"مرآة حافظ

هذا وقد قام المستشرق الألماني"فيتزجرالد"بترجمة رباعيات عمر الخيام، كما حاولَت الرومانتيكية في ألمانيا في القرن التاسع عشر الاتصال بالشعر الشرقي

من مدخل إنساني، حتى لقد شغل هذا الأدب الشرقي حيزًا كبيرًا في تاريخ الأدب الألماني في هذه الفترة.

ثانيًا: في مجال القصة:

ولقد كانت مجموعة القصص الأندلسية تؤلِّف مجموعةً من الثقافة الإسلامية والإسبانية، كما كانت بدء انقلاب مُهمٍّ في تاريخ الأدب الأوروبي الحديث، يتمثَّل في ظهور القصة الحديثة Novel، ظهر ذلك جليًّا عند سرفانتس Cervantesالذي يعتبر مدينًا للثقافة الأندلسية بالشيء الكثير في قصته"دون كيخوته Don Quixoto "كما صرح بذلك بريسكوت Presscottلما لاحظه من فِطنة ولياقة وغير ذلك.ومن القصص الإسلامية التي كان لها أثر في آداب الغرب، قصة"حي بن يقظان"للأديب الطبيب الفيلسوف ابن الطفيل الأندلسي، في القرن السادس الهِجري) الثالث عشر الميلادي(، ويُمكن أن يكون ابن سينا في القرن الرابع الهجري) العاشر الميلادي (أول من كتب رسالة على هذا النحو، وتُسمى"رسالة حي بن يقظان"وهي ذات مضمون صوفي رمزي.

وتُعالج قصةُ ابن الطفيل فكرةَ الاهتِداء إلى الله ومعرفته عن طريق العقل والتجربة معًا، خلال النظرِ في آيات الله – سبحانه وتعالى – يرفده في هذه القصة ثقافة دينيَّة وأدبية وفلسفية، جعلت من عمله هذا إسهامًا حضاريًّا فكريًّا فُتن به مُتأدِّبو الشرق والغرب.

وتتلخَّص هذه القصة في أن"حيّ"هذا اسم لطفل، وُجِدَ على جزيرة من جزر الهند، لا يوجد عليها بشر سواه، فتلقَّته ظبية حنَت عليه وربَّته لأنها حسبته

رضيعها المَفقود، ومع نمو الطفل بالتدريج أخذ يُدركُ كثيرًا من الأفكار السليمة، واهتدى إلى أن للكون خالقًا، أخذ يتوجَّه إليه بالعبادة والتضرُّع، ثم التقى بمُتصوِّف آخَرَ هبط على هذه الجزيرة بُغية الاعتزال يُقال له"أبسال"، كان يعبد الله في جزيرة أخرى، ولكنه أخذ يُعلِّم حي بن يقظان اللغةَ ثم الشرائع، واهتديا معًا إلى "أن هذه الحقائق التي عرفاها بالفطرة والعاطفة لا سبيل لها إلى قلوب العامَّة، وأدركا حكمة الشريعة في مُسايَرتِها عقول الناس على قدر ما تيسَّر لهم فهمه."

هذا وقد تُرجمَت قصة"حي بن يقظان"لابن الطُّفَيل إلى العِبرية في القرن الثامن الهجري) الرابع عشر الميلادي(، ثم في القرن الحادي عشر الهجري) السابع عشر الميلادي (إلى اللاتينية بعنوان"الفيلسوف المعلم نفسه"، ومن اللاتينية إلى الإنجليزية، وقد تأثَّر بها الكاتب الإسباني"بلتاسار جراثيان **Baltosor Gracion**"في قصة) النقاد **Criticon** (وهي مُقسَّمة إلى ثلاثة أجزاء هي: في ربيع الطفولة، ثم في خريف عهد الرجولة، ثم في شتاء الشيخوخة، وهي نقد للعادات والتقاليد في عصر المُؤلِّف.

ويرى بعض المفكرين أن دانيل ديفو تأثر في قصته"روبنسون كروز"بقصة ابن الطفيل، لا سيَّما وقد انتهى بطلا القصتَين إلى معرفة الله – سبحانه وتعالى – والاهتداء إليه وإدراك هيمنته على الكون، هذا برغم اختلاف نظرة كلٍّ منهما؛ من حيث إن حيَّ بن يقظان كان فلسفيَّ النظرة، بينما كان روبن علميًّا واقعيًّا.

وقد تُرجِمت قصة حي بن يقظان إلى الفرنسية والروسية في مطالع القرن الرابع عشر الهجري.ومِن ذلك أيضًا"قصيدة يوسف – "عليه السلام – المَجهولة المؤلف والتي تنتسب إلى القرن الثامن الهجري) الرابع عشر الميلادي(،

والمأخوذة عن القرآن الكريم، والمصادر العربية الأخرى، وهي مكتوبة بحروف عربية على الرغم من أن كلماتها إسبانية، وشِعرَها فرنسي، وهي مثال لما يُعرَف في إسبانيا والبرتغال بالأدب الأعجمي.ولقد نقل المسلمون"كليلة ودمنة"إلى إسبانيا، وظهر أثرها واضحًا عندما وظِّفت القصة في تقديم المواعِظِ والدروس الأخلاقية كما في مجموعة خوان مانويل ابن أخي ألفونس الحكيم، وهي مجموعة قصصية بعنوان"بترونيو وأكوند لوكانور"في القرن الثامن الهجري) الرابع عشر الميلادي(؛ إذ يسأل الشريف وزيره بترونيو النُّصحَ في بعض مشاكلِ الحياة والحكومة، فيجيبه بترونيو عن سؤاله بقصة فيها الجواب، وقد وردَت كثير من هذه الأقاصيص إلى أصلها الشرقي، بل عُثر فيها على عبارات كانت شائعة يومذاك مكتوبة بحروف إسبانية بنطقها العربي.

وإذا كانت كليلة ودمنة قد أسهَمَت في تطور أنواع أخرى من الحكاية في الشرق كـ"المقامات"و"ألف ليلة وليلة"، فقد أدَّت هذه النماذج إلى تأثُّر الآداب الأوروبية بها تأثرًا واضحًا، لا سيَّما وقد طبعت عدة طبعات في الغرب، ولكن نظرًا لاختلاط المصادر الإسلامية بغيرها فيها، فقد اكتفَينا للتدليل على موضوع الدراسة بالنماذج التي أشرنا إليها، وهي نماذج إسلامية خالصة، تتَّضح فيها الفِكرة الإسلامية ذات الطابع الأخلاقي.

ويُضاف إلى ما سبق أثر مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري في الآداب الأوروبية، ولكن الذي قصَدْنا إليه هو إبراز النماذج ذات المَضمونِ الإسلامي الواضِح، والشكل الإسلامي المُتميِّز.

وهكذا يُمكِن أن نأتي إلى خاتمة هذه الدراسة بعد أن حاولنا تقديم مفهوم للأدب الإسلامي، لا ندَّعي أنه نهاية المَطاف، بل نأمل أن ترفده محاولات أخرى

لتحقيق كثير من جوانبه، وإثرائها، لا سيَّما خصائص اللغة التي يُصاغُ بها الأدب الإسلامي، والتي نرى أنها اللغة العربية، اعتمادًا على أنها لغة القرآن الكريم دستور هذه الأمة الإسلامية، ومقوم حياتها، دينًا ودُنيا، وإن كان هناك من يرى أن تكون هناك "لغات إسلامية" حتى يَنفسِحَ مفهوم الأدب الإسلامي انفساحًا كبيرًا، ولستُ أتصوَّر كيف تكون هناك لغة إسلامية غير العربية، التي بها نُصلي وبها ذاع الإسلام وانتشر، بل وأصبحت اليوم من بين لغات العالم المهمَّة في المحافل الدولية.وفي تصوُّري أننا يجب أن نَعتني بهذه اللغة العربية التي حفظها القرآن الكريم، والتي تعدُّ الرابطة الروحية بين المسلمين، والتي بها يقرؤون كتاب الله العزيز، وليس معنى ذلك أننا نقف حجر عثرة في وجه تعلم أية لغة غير العربية، كلاَّ، إنما نحن حريصون أولاً على إجادة العربية، وثانيًا ندعو إلى أن يُجيد كل مسلم ما يستطيع من اللغات غير العربية؛ ففي ذلك ثراء لفِكرنا وأدبنا الإسلامي.كما أشرتُ إلى أهمِّ المعابر التي تمَّ من خلالها الاتصال بين الأدب الإسلامي والآداب الأوروبية، علمًا بأن هناك وسائل أخرى كرحلات العلماء والتجار وغيرهم أسهمت في توثيق هذا الاتصال، لكنها تابعة لهذه المعابر.

ولقد كان عَرضي لأثر الشِّعر الإسلامي قائمًا على أساس المضمون والشكل كما ظهر في الجحيم لدانتي وشِعر التروبادور، وإن كانت هناك فوارق في بعض التفصيلات لكنها لا يُمكن بأية حال أن تخفي أثر الآداب الإسلامية شكلاً ومضمونًا، كموقف دانتي في المطهر.وكذلك ما عرضته لأثر القصة الإسلامية، وإن كانت الجوانب الموضوعية في هذا الصدد أكثر خصوبةً وثراءً من الجوانب الشكلية، لأنَّني لا أتصور أن يكون ما عند الغرب في هذه الناحية صورة طبق الأصل الإسلامي؛ فللفنِّ وسائله التي تتعدَّد بها وجوه الفِكرة من مكان إلى مكان.

"وكم كنتُ أودُّ أن أشير إلى بعض جوانب ذلك في المسرح الغربي، لكن الظاهِرةَ الإسلامية بحاجة إلى تدقيق وتقصٍّ، وإلا فهناك ما يُشير إليه كثير من الباحثين ويتمثَّل في الآثار المُتعدِّدة للأدب العربي في أدب شكسبير، وما لاحَظوه مِن تماثُل وتناظر، فهناك مثلاً شبه كبير بين قصة"زرقاء اليمامة"المعروفة وبين مسرحية"ماكبث"لشكسبير، ففي"رنات المثالث والمثاني"رأت زرقاء اليمامة شجرًا يسيرُ، وما كان هذا الشجر سوى أعداء قومها، وقد حمل كل بطل شجرة قدر طاقته؛ ليتخفى وراءها أثناء التوجُّه لغزو قوم زرقاء اليمامة، الذين لم يصدّقوا ما رأته زرقاء وما أخبرتهم به، حتى فوجئوا بالأعداء كما وصفت زرقاؤهم وحلَّت بهم الهزيمة."[100]

وقد وردت فكرة الغابة المُتحرِّكة في مسرحية"ماكبث"لشِكسْبير، إذ بينما كان القائد ماكبث متحصِّنًا في قلعته، إذا بأحد الحراس يُسرِع إليه ليخبره بأن غابة"برنام"تتحرَّك، وفي الحقيقة، لم تكن الغابة سوى جيش مالكولم الذي جاء مُتقدِّمًا نحو القلعة، وتستُّرًا بأغصان الأشجار؛ ممَّا بدا للحارس كأنه غابة"برنام"تسير، ومن هنا أخذ ماكبث على غرّة.

ويذهَبُ بعضُ المُفكِّرين إلى أن فكرة مسرحة"عطيل"لشكسبير يمكن أن تكون مستوحاة من حكاية"التاجر الذي عاد من الغربة"، وهي إحدى حكايات خوان مانويل التي وضَعها في القرن الثامن الهجري تقريبًا، ويتمثَّل فيها مغزى مسرحية عطيل لشكسبير.

---

[100]- مجلة الأمة – العدد 49 – السنة الخامسة – المحرم 1405هـ / (أكتوبر) 1984م. ممكن العودة إلى : الإسلام منهج حياة؛ فيليب حتي، ترجمة: د. عمر فروخ – دار العلم للملايين – بيروت – التاريخ الإسلامي وأثره في الفِكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة؛ د. جمال الدين الشيال، دار الثقافة، بيروت– تراث الإسلام؛ تأليف: ألفرد جيوم وآخرين) ثلاثة أجزاء(، ترجمته لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة سنة 1936م، ثم قامت سلسلة عالم المعرفة في الكويت بنشرِه سنة 1978م– تراثُنا بين ماضٍ وحاضر؛ د. بنت الشاطئ، ط. دار المعارف سنة 1389هـ (1970م

لكن مثل هذا في نظرنا أقل من أن يُمثِّل الظاهرة الإسلامية في الأدب، وتأثيراً في آداب الغرب، لا سيَّما ونحن نتحرَّى هذه الظاهرة شكلاً ومضمونًا، ونحن نُحاول التأصيل للأدب الإسلامي ونقده.

".